البحث عن السادات

تأليف : د. يوسف إدريس

لماذا ننشر هذا الكتاب ؟!

بنشر هذه المقالات (الكتاب) فى مصر ، يتقدم بها كاتبها الدكتور يوسف إدريس إلى النائب العام مطالباً أن يحقق معه فيما ورد بها ، ذلك أن الحملة الخبيثة التى شنت على (البحث عن السادات) وكاتبها ، قبل أن يقرأ أحد فى مصر كلمة واحدة مما جاء فيها ، كان الهدف منها ذر الرماد فى العيون ، وطمس الحقيقة ، وإرهاب كل قائل حق أو كاتب رأى حتى يغلق فمه ، وتمر مؤامرة الصمت ، مثلما مرت مؤامرة الفعل ، ويبقى الشعب المصرى مغلق الأعين عن أن يرى كيف ولماذا ومن أجل من وضعت أيديه وأرجله فى قيود من حديد ، وبمؤامرة بالغة الخبث والدهاء ، وبدور خطير لعبه الرئيس أنور السادات ، أخطر دور لعبه ملك أو رئيس مصرى فى كل التاريخ المصرى ، ولمصلحة أعداء الشعب المصرى .

ومن أجل هذا آثرنا أن ننشر النص الحرفى لتلك المقالات السبع التى نشرت فى جريدة القبس وغيرها بالخارج ، وقبلها ، وكمقدمة ، كتب الدكتور يوسف إدريس افتتاحية بعنوان ((البحث عن الحقيقة)) كمقدمة لابد منها لفهم الظروف والجو النفسى المرعب الذى قصد به إرهاب القارئ أن يقرأ مثلما قصد به إرهاب أى كاتب آخر أن يدرس أو يعلق ، ذلك أن المؤامرة لا تزال قائمة ، ومطلوب أن تظل ماضية لتكبل بقية الدول العربية فى قيود مماثلة ، تمكينا للعدو الأمريكى الإسرائيلى من هيمنته الكلية السافرة على المنطقة .

وإننا لنأمل ، حين ينتهى القارئ من هذا الكتاب الصغير فى حجمه ، الخطير تماماً فى محتواه ، أن يكون قد كون رأيه الخاص به فى الفترة التى يتصدى لها كتاب ((البحث عن السادات)) ذلك الرأى الذى من المحتم أن يؤدى بالقارئ إلى موقف ، موقف حازم حاسم فعال من المؤامرة المبرى التى تنفذ إلى الآن ، وبنجاح ساحق ، لقهر الإنسان المصرى والعربى لمصلحة أعوانه إلى أبد الآبدين..

أيها القارئ العزيز ..

اقرأ واستيقظ

فنصف الجريمة أنك نائم

وأنهم مستيقظون ، واعون .

سمير زكى عبد القوى

البحث عن الحقيقة

ما هذا الذى حدث ؟

وكيف حدث ؟

ولماذا حدث ؟

أسئلة كان من الصعب تماماً أن يجيب عليها الإنسان وسط زوبعة الرمال والتراب وعواء القطط والكلاب ، وفرقعات مسدسات الأطفال وقنابل الصوت التى كانت تحفل بها الساحة ، والذى تفجر فجأة فى أوائل إبريل الماضى إثر نشر إعلان ـ مجرد إعلان ـ عن مقالات سبع ستنشرها لى جريدة القبس الكويتية وتنقلها عنها بعض جرائد الخليج والأردن . فحتى ذلك الوقت كانت الساحة السياسية هادئة أو شبه هادئة ، وكان الشد والجذب يدور حول حتمية ((التغيير)) وضرورته ، ذلك الذى تطالب به المعارضة ، وعدم ضرورة التغيير الفورى وخطورته ، ذلك الذى تراه السلطة وبالذات قيادة الحزب الوطنى الحاكم .

وكأنه كان غريبا أن تظهر مقالاتى فى نفس ذلك الوقت ..

فأنا لست طرفاً فى اللعبة السياسية الدائرة منذ حادث المنصة حول السادات ، أو هكذا بدوت ، وأن أطلع فجأة على القراء برأى خطير فى أنور السادات ، مسألة قيل فى تأويلها كل ما يمكن أن يخطر على بال إنسان موتور أو حتى حسن النية . غير أن أحداً لم يتوقف للحظة ويتساءل عن الحقيقة ، ولماذا بدا أنى خرجت على الناس فجأة برأى فى السادات وكأننى قد اتفقت مع الأستاذ هيكل ، ومع الصحف العربية التى نشرت كتابه ومقالاتى فى ((مؤامرة!)) للنيل من الرئيس الراحل ، معاً ، وفى وقت واحد .

ولو كنا فى ظروف عادية ، ولو لم يملأ الصغار ، والمسترزقون الصحفيون من عهد السادات وإلى الآن ، الجو بالغبار والرمال وقذائف الطين ، لأمكننا جميعاً أن نرى الحقيقة بنفس البساطة التى تمت بها ، ولما احتاج أحد جهابذة كتاب جريدة الأخبار لأن يقول : إن موسكو ضغطت على زر ليكتب هيكل وإدريس وغيرهما ضد الساداتية فى ذلك الوقت بالذات ، الذى تستعد فيه مصر للاحتفال بعودة سيناء (25 إبريل) وتدور مفاوضات (كامب ديفيدية) أخرى مع لبنان.

وفى الجانب الذى يخصنى ، سأورد هنا ، ولأول مرة حقيقة أفكارى ومشاعرى تلك التى انتهت بنشر المقالات السبعة .

والبداية الحقيقية كانت فى أوائل يونيو عام 1982 حين اجتاحت جيوش إسرائيل لبنان تضرب وتذبح وتنكل وتحرق وتنسف وتقتل المدنيين والعسكريين ، الأطفال والنساء والشيوخ ، ويتوج الأمر بمذابح صبرا وشاتيلا فى النهاية.

كان غزو لبنان نقطة تحول كبرى فى تفكيرى ..

ذلك أنى كنت أعتقد أن الضرر الذى حدث من كامب ديفيد ، كان قاصراً إلى ذلك الحين على عزل مصر عن شقيقاتها العربيات ، وربط مصر ربطاً محكماً بالاستراتيجية الأمريكية الإسرائيلية للسيطرة على المنطقة بتحييد أكبر وأهم دولة عربية باستطاعتها التصدى للأطماع الإسرائيلية أو الأمريكية أو المشتركة فى المنطقة .

ولكن غزو لبنان أكد لى الشعور بأن كامب ديفيد لم تكن إلا مجرد خطوة على الطريق .. أو بالأصح البداية الحقيقية لفترة طويلة قادمة هى فترة السيادة الإسرائيلية ، بالقوة الغاشمة على المنطقة ، تلك السيادة المطلوبة والمدعومة والمسنودة تماماً من الولايات المتحدة الأمريكية .

وتصادف أنى كنت قد انتهيت من قراءة الجزء الأول من مذكرات كيسنجر وأيضاً مذكرات الرئيس الأمريكى السابق كارتر ، وبدأت تنشر فى خريف عام 82 أيضا مذكرات محمد إبراهيم كامل وزير الخارجية إبان مفاوضات كامب ديفيد.

والحقيقة أنى تابعت قراءة تلك المذكرات التى كانت تنشرها جريدة الشرق الأوسط السعودية التى تصدر فى لندن. وكنت أتابع ما ينشر من فصولها (التى بلغت حوالى الثلاثين صفحة من صفحات الجريدة) فى شغف وإلى درجة دفعتنى لكتابة مقال فى نفس الجريدة كان رداً على بعض الأقلام التى هاجمت محمد إبراهيم كامل فى صحف القاهرة وعابت عليه نشره لمذكراته كوزير خارجية سابق ..

وحين انتهى نشر المذكرات ، وبالإضافة إلى ما علق بذاكرتى من مذكرات كيسنجر وكارتر عن نفس الفترة ، وجدت أنى قد بدأ يتكون لى رأى خطير فيما فعله السادات فى كامب ديفيد وفيما فعلته كامب ديفيد فى السياسة المصرية والعربية . وكما ذكرت بدأت أكتب هذا الرأى لنفسى ، كما قلت آنفاً فى إحدى مقالاتى السابقة. ثم بدأت أجد أن رأيى هذا يستلزم الرجوع إلى شخصية السادات ودوره فى الثورة المصرية وشخصيته ، والخطة التى بناها كيسنجر ومرتكزها الأساسى تلك الشخصية الساداتية الفريدة فى تاريخنا كله .

كتبت الآراء على هيئة خمس مقالات ، كان موقفى فيها امتداداً لما كتبته عشية الغزو الإسرائيلى للبنان ، باعتبار أنه جزء من الخطة الكبرى المرسومة للمنطقة .

بل إن دافعى الأول لكتابة تلك المقالات لم يكن مجرد ((البحث عن السادات)) ، كان فى الحقيقة محاولة للبحث عن الخطة العظمى المرسومة للمنطقة - والتى أدخل السادات نفسه فيها عن إرادة ووعى ، لا ليستغلها هو لمصلحة مصر ، وإنما لكى تستغله هى - أى الخطة - لمصلحة أمريكا وإسرائيل ..

وحين تسرب خبر كتابتى للمقالات ، فى حوالى فبراير 1983 ، إلى الجرائد الكويتية ، تلقيت عرضاً من جريدة القبس عن طريق مدير مكتبها فى القاهرة لنشر المقالات فى الجريدة المذكورة والحصول على حق نشرها فى كل المشرق العربى ..

ووافقت ..

فمسألة نشرها فى مصر كانت غير واردة بالمرة ، لأسباب كثيرة ، لا يخفى على القارئ معظمها ، ولكن أهمها فى رأيى أن الرأى العام فى مصر يكاد يكون محاصراً ، بحيث إن كثيراً جداً مما يهم الرأى العام المصرى الوقوف عليه لا ينشر فى مصر ، وإنما ينشر أساساً فى الجرائد العربية التى تصدر فى لندن وبيروت وباريس .. بحيث أصبح الرأى العام المصرى يكاد يكون محلياً منكفئاً على نفسه ، ومحظور أن ينشر فى جرائده الكبرى الحكومية ما يمكن أن يعتبر رأياً علمياً عميقاً يناقش الفترة الساداتية أو حتى الفترة الناصرية ، وكل ما يحظى به الرأى العام فى مصر هو مجرد اتهامات سواء للحكم الناصرى أو الحكم الساداتى ، تهتم الأولى بالاستبداد والحكم بالمخابرات ، وتهتم الثانية بكل عيوب ومآسى سياسة الانفتاح والخضوع لأمريكا .

وللآن لا يزال الاقتراب الجاد الخطير ، والتقييم العلمى ، وبالضبط كنه ثورة 23 يوليو ومسائل كبرى كالعدوان الثلاثى أو التدخل فى اليمن أو هزيمة 67 أو ثغرة الدفرسوار ، أو حقيقة الدوران للخلف الذى حدث عام 1971 ، وهل كان يمكن أن يكون ((تصحيح)) أخطاء ثورة 23 يوليو ، بتطويرها ، وحقنها بكم وافر من الديمقراطية السياسية وليس أبداً بالنكوص عنها ، والعودة القهقرى إلى نظام حكم الأقليات الحزبية أيام الملك ، وأيام قبضة محمد محمود الحديدية وديكتاتورية إسماعيل صدقى ..

كل تلك المواضيع الكبرى فى حياتنا لا تزال لم تناقش بعد ، وأبداً ليس من منطلق ترك واقعنا الحالى أو تطلعنا إلى المستقبل ، والعودة إلى الماضى نتفحص و ((نفلى)) فيه كاليهودى الذى أفلس ، لا ، وإنما لكى نحدد حركتنا إلى المستقبل

تحديداً واضحاً وصحيحاً ، فلابد أن نعرف أين نضع أقدامنا الآن ، ولكى نعرف موقع أقدامنا الحاضرة فلابد أن نعرف تاريخ ذلك الموقع وكيف كان وجاء. فمثلاً قاعدة رأس بناس ، تم الاتفاق عليها أيام السادات ولو كان السادات حياً لسرى الاتفاق ولأصبحت تلك القاعدة قاعدة أمريكية تستعملها الولايات المتحدة كجزء من استراتيجيتها لردع أى دولة عربية وليس أبداً لردع الاتحاد السوفييتى . ولكن الحكومة المصرية رفضت أن تكون هذه القاعدة قاعدة أمريكية حتى لا تقودنا إلى الدخول فى فلك الاستراتيجية الأمريكية وفقد سيادتنا على أرضنا وتخلينا تماماً ، أو بالأصح ، طردنا من معسكر عدم الانحياز باعتبار أننا انحزنا تماماً للمعسكر الغربى الأمريكى .

هذا الرفض لحكومتنا لم يأت من فراغ ، وإنما هو رفض بنى على أساس التطلع للمستقبل ، ودراسة الحاضر على هذا الضوء ، وقد حتمت تلك الدراسة أن نراجع سياسة السادات تجاه منح أمريكا ((تسهيلات)) ، وبالدراسة وجدنا أن بناء الولايات المتحدة للقاعدة سيجعل منها ((قاعدة)) أمريكية ، وهكذا رفضت حكومتنا .

نفس هذا الشئ أتصوره يحدث بالنسبة لكل أمور حياتنا ، فنحن فى سعينا مثلاً لتحسين وضعنا مع البلاد العربية ، من المحتم أننا سنعود إلى الفترة الساداتية وبالذات إلى الفترة التى أعقبت حرب أكتوبر المجيدة ، والموقف الذى اتخذته كثير من البلاد العربية من اتفاقيات فض الاشتباك الأولى والثانية ، كى نعرف أساس خلافنا مع العرب ، أو اختلاف العرب معنا ، ذلك الذى أدى إلى القطيعة الكاملة ذات يوم.

أريد أن أقول : لقد اتضح الآن أن المسألة ليست مسألة ((نبش قبور)) أو عودة إلى الماضى ، وإنما هى تطلع إلى المستقبل بعيون ترى الحاضر بدقة ، ولكى تراه بدقة لابد أن تعرف جذوره ، حتى جذوره القريبة ، تلك التى لم يمض عليها أقل من عشر سنوات ..

وما كتبت مقالاتى عقب الغزو الإسرائيلى للبنان إلا محذراً من ((الخطة العظمى)) وراء هذا الغزو ، ومن مؤامرة تقسيم لبنان إلى دويلات عرقية ودينية ، دويلات تبرر وجود إسرائيل كدولة عرقية دينية ، وفى نفس الوقت تكون من الضعف بحيث تتيح لإسرائيل السيطرة الكاملة على تلك الدويلات ..

وحين قرأت مذكرات محمد إبراهيم كامل وجدت أن مصر قد أضيرت ضرراً هئلاً بمبادرة السلام وباتفاقيات كامب ديفيد ، وأن كنه هذا الضرر وأبعاده شئ لا يمكن معرفته إلا بالرجوع إلى مذكرات الرجل الذى شهد تلك المفاوضات من داخل المعسكر الساداتى نفسه ، فهى ليست مذكرات كتبت من أجل أن يطالعها الإنسان

فى وقت فراغه ، ولكنها وثيقة خطيرة لابد لأى إنسان لديه ذرة من الوطنية ، حتى لو كان مؤمناً بالسادات وسياسته ، أن يتوقف عندها طويلاً ، ويراجع رأيه وحساباته فى سياسة السادات تجاه أمريكا وإسرائيل ، بل وفى سياسته كلها ، داخلياً وخارجياً.

وقد وجدت نفسى ، قبل أن أكتب تعليقى على مذكرات إبراهيم كامل وبعد أن كتبته بين أحد أمرين :

إما أن أبقى هذا الرأى لنفسى حتى لا أجر على نفسى مشاكل ، خاصة وصحفيو وكتاب السادات لا يزالون ، بربطة المعلم ، يحتلون الساحة الصحفية والسياسية ، لم يتغير منهم أحد . بل هم أقوى مما كانوا فى عصر السادات ، ففى عصر السادات كان الواحد منهم يخاف أن يغضبه فيطرده ، والجميع يحاولون إرضاءه ويتنافسون فيما بينهم ، مما كان يخلق بينهم حزازات وعداوات لا تحصى ، أما اليوم فهم تكتلوا يدافعون عن بعضهم البعض ويشكلون كتيبة مترابطة تصرخ فى وجه كل من يقترب من أحدهم ، أو منهم جميعاً. أو من الرجل الذى صنعهم ويرفعون رايته ، السادات ، حتى لو كان بعضهم قد انتقد السادات بعد موته وبدأ يعد العدة للهرب من الصف ، الآن هم توحدوا ، يدافعون عن وجودهم هم وعن مصالحهم ، وعن رقابهم ، بحيث أصبحوا أكثر عدوانية وشراسة ، وبحيث أصبح نقد السادات ، أى نقد ، ربما أصعب من نقده وهو حى ، فقد كان بعضهم ينكص عن مهاجمة من ينتقد حتى لا يقال عنه إنه كاتب السلطان والسلطة ، الآن وبعد وفاة السادات هم ليسوا كتاب السلطان فقد مات السلطان ، وإنما هم كتاب ((مبدأ)) يدافعون عن السادات عن ((مبدأ)) ، وكأن لا مصلحة لهم أبداً فى الدفاع عن السادات !.

إما هذا ..

وإما أن أنشر رأيى على الناس ، وأبشر به ، فإذا رد على أحد فإنى على استعداد للرد عليه ، ومناقشته ، ولم يكن أروع لدى من أن يخرج لى أحدهم ، ويفند ما قلته جميعا ، ويثبت لى وللقراء أنى على خطأ. فالكاتب حين يكتب ، أقصد الكاتب الصادق الشريف مع ذاته ورأيه ، لا يتصور أن كتابته كتاب أنزل ، وإنما هو يتصورها آخر اجتهاداته فى هذا الشأن أو ذاك ، فإذا صمدت للرأى أو للجدل كان بها ، وإذا انتصر عليها رأى أو اجتهاد آخر ، فأهلاً به ..

وأخذت بالرأى الثانى فى الحال . وبلا أى تفكير . فأن يرى الكاتب رأياً ويخفيه عن الآخرين طلباً للسلامة هو قمة خيانة النفس فى رأيى مهما جلب عليه الرأى من متاعب ، فآخر ما يحسبه الكاتب هو المتاعب التى سيجرها عليه رأيه ، فهمه كله منصرف إلى تمحيص هذا الرأى وإيصاله للقارئ مهما كلفه هذا من جهد وتضحية ، أحياناً يكلفه الرأى حياته ، غير مهم ، أحياناً يكلفه حريته ، غير مهم ، حين قبض

على عقب معارضتى لمعاهدة 1954 التى أبرمها جمال عبد الناصر مع البريطانيين وسميت معاهدة الجلاء . كنت وأنا فى زنزانتى الانفرادية فى ((القلعة)) أسعد إنسان بهذا السجن ، إذ كنت أحس أنى ، بسجنى ، إنما أدفع ثمن قول رأى فى بلد يعاقب بالسجن صاحب الرأى ، ومعنى هذا أن وجودى فى السجن نتيجة طبيعية تماماً ، فالحكومات فى العالم الثالث لا تنعم بالنياشين على أصحاب الرأى ، خاصة إذا كان رأياً معارضاً آخر ، إنها تعاقبه على رأيه ، وتضربه ، وأحياناً تقتله ..

وهكذا قررت أن أنشر المقالات ، وأعطيتها لمدير مكتب ((القبس)) فى القاهرة - وهو زميل عضو فى نقابة الصحفيين المصريين وصحفى مصرى متمرس أؤثر أن أبعده عن المتاعب ، فالرجل ليس وحده ، إن هناك أكثر من خمسمائة صحفى مصرى يتعاملون مع الجرائد العربية ، وهذا شئ طبيعى جداً ، فهم ، مثلهم مثل الأطباء المصريين والمدرسين المصريين والعمال المصريين والفلاحين المصريين ، لا يجدون أى غضاضة فى العمل فى الصحف العربية ، والعيب ليس عيبهم أبداً ، إنما هو عيب أولئك الملوثين الذين يكتبون التقارير عن زملائهم فى جرائدهم ، الذين يتهمون مئات الصحفيين هؤلاء بأنهم ((يخونون)) مصر ، فهؤلاء هم العملاء حقاً ، عملاء كل عهد ، وكل حكم ، من أيام فاروق أيام المصاريف السرية إلى عهدنا الآن ، ذلك الذى يدفع ((وظائف)) و ((سلطات)) تأتى من ورائها مكاسب لمن يرضى عنهم ويرضونهم من يعض صغار الصحفيين .

كان ذلك كما قلت فى الشتاء الماضى ..

وطلبت من الزميل مدير ((القبس)) ، ومن رئيس تحرير القبس حين خاطبنى تليفونياً بعد هذا ، سرعة نشر المقالات ، ووعدنى بسرعة النشر ، ولكن النشر تأخر ، حتى بدأت أفكر فى فسخ التعاقد على النشر ، فالموضوع كان لا يحتمل التأجيل فى رأيى ، ولم أكن أعرف سبباً معقولاً للتأجيل .

وفيما بعد عرفت السبب .

فجريدة ((الوطن)) الكويتية كانت قد تعاقدت على نشر فصول كتاب ((خريف الغضب)) ابتداء من إبريل ..

و ((القبس)) ادخرت مقالاتى - لتنشر - لأسباب منافسة صحفية ((لا تخفى على القارئ)) فى نفس الوقت.

ولو كنت أعرف هذا لرفضت المبدأ ، فالمسألة فى رأيى أخطر من أن تؤخذ على أنها منافسة صحفية أو قلمية . إنه رأيى الذى أريد له الظهور بأسرع وقت ..

ولكنى لم أكن أعرف . بل لم أكن أعرف أن كتاب ((هيكل)) سيصدر بالعربية فى ذلك التاريخ . وأيضاً لو كنت قد عرفت لرفضت أن تنافس مقالاتى ((خريف الغضب)) ، فتلك مسائل صغيرة ، والقضية التى أناقشها أكبر وأخطر بكثير ..

إنما ، هذا هو ما حدث .

وربما لو كانت قد صدرت مقالاتى فور كتابتها ، لتغير الوضع ولكنى ، حتى وهى قد صدرت فى قمة زوبعة إبريل الأمشيرية الخماسينية التى تعمى العيون .. فأنا أبداً غير آسف .

فالرأى الصحيح لا يهم موعد صدوره ، أو ظروف صدوره . إنى فقط أذكر هذه الحقائق لأوضح لبعض من التبس عليهم الأمر وظنوا أن ((القبس)) كلفتنى ، ((بسرعة)) لكتابة مقالاتى حتى تنافس بها فصول ((خريف الغضب)) فيما أسماه لى رئيس تحرير قومى أعتز به ((موسم الهجوم على السادات)).

ولكنى أعذره .

بل وأعذر الكثيرين الذين خفيت عنهم كل هذه الحقائق ، ورأوا ((من الخارج)) أنها لم تكن صدفة ، وأنها عمل مدبر ، و ((مؤامرة!)) .

ومؤامرة النشر ، كما ذكرت ، مؤامرة تنافس صحفى ، مهما كان فهو مشروع .

أما المؤامرة الحقيقية فهى ما حدث بعد النشر .

مؤامرة ، رغم خيالى الواسع ، لم تخطر لى على بال أو خيال .

إذ كنت قد سافرت إلى أثينا فى الأسبوع الثانى من شهر إبريل الماضى بدعوة من لجنة التضامن الإفريقية الآسيوية المصرية لحضور مؤتمر لمناصرة القضية الفلسطينية يعقد فى أثينا فى الفترة من 9 إلى 12 إبريل .

وعدت بعد أسبوع لأفاجأ فى اليوم التالى مباشرة بمربع ضخم فى جريدة الأهرام تحت عنوان ((من بريد القراء)) ، مربع يحتل نصف الصفحة ، وبطريقة تحريضية مباشرة يحتوى على إعلانين ، أحدهما عن سلسلة مقالاتى ((البحث عن السادات)) والآخر عن كتاب الأستاذ محمد حسنين هيكل ((خريف الغضب)) . والإعلانان كانا قد نشرا فى جريدة ((الخليج)) التى تصدر فى الإمارات العربية المتحدة ، والتى كانت قد أخذت على عاتقها أن تنشر مقالاتى ، وفصول كتاب هيكل ، نقلاً عن جريدة القبس والوطن الكويتيتين.

فوجئت بعدة أشياء :

فأولاً : كان إعلان جريدة ((الخليج)) عن المقالات إعلاناً من النوع الذى تحفل به صحف الإثارة عندنا وفى الخارج ، بل والإثارة المبالغ فيها التى تصل إلى حد الاستفزاز الشديد ، وقد أخذ الإعلان كلمات من جملة مقالاتى السبعة ، كلمات مبعثرة على طول صفحات المقالات المنشورة ، ووضعت بجوار بعضها البعض على طريقة اجتزاء الجمل والفقرات مثل : لا تقربوا الصلاة . والحق أن الإعلان أغضبنى تماماً .

وثانياً : ولكن الذى أغضبنى أكثر فى الحقيقة هو الطريقة التآمرية التى نشر بها الإعلان ، فأنا أعمل فى الأهرام ، والأهرام أكثر الجرائد احتراماً فى مصر والعالم العربى ، وقد كان جديراً بالمسئولين عن التحرير فيه ، أن يعرضوا على الإعلان ، ويعطونى أنا فرصة التعليق عليه ، أنا نفسى ، واستنكاره ، أو إن لم أفعل يكونون قد قاموا بما يمليه عليهم شرف مهنة الصحافة وحينذاك يصبحون أحراراً فى نشر الإعلان والتعليق عليه .

ثالثاً : كان التعليق واضح الادعاء والتزوير ، فقد زعم المحرر (وقد ثبت أنه لم يكن المحرر الأصلى لباب بريد القراء فى الأهرام ، ولكنه مدير تحرير الأهرام الذى كان مسئولاً بعد سفر رئيس التحرير إلى الخارج) زعم المحرر أنه تلقى مئات الخطابات تستنكر المقالات (التى لم تكن قد نشرت فى القبس أو الخليج) وأن مرسلى بعض الخطابات قد قصوا الإعلان المذكور من جريدة الخليج وأرسلوه إلى الأهرام.

وذكر ((قارئ)) كان واضحاً أنه ليس سوى مدير تحرير الأهرام متنكراً خلف قارئ مجهول ، ذكر أننى وصفت حرب أكتوبر بأنها تمثيلية متفق عليها بين السادات وإسرائيل وأمريكا ، وهو ادعاء كاذب ، فليس فى المقالات كلها كلمة تمثيلية ، وليس فيها أى طعن فى أداء الجيش المصرى البطولى فى أكتوبر. وكل ما فيها خاصاً بحرب أكتوبر لم يكن سوى فقرة واحدة من المقال الثانى على هيئة تساؤلات حول طعنة الثغرة التى وجهت إلى ظهر الجيش المصرى وهو فى قمة انتصاره ، لتتيح لإسرائيل وضعاً عسكرياً تعبر فيه قواتها إلى غرب القناة وتحاصر الجيش الثالث وتقطع الإمدادات عن مدينة السويس وتنتشر داخل الأرض المصرية ، وهو أمر كان ممكناً تماماً ألا يحدث لو كانت القيادة السياسية للحرب المتمثلة فى شخص رئيس الجمهورية آنذاك والقائد الأعلى للقوات المسلحة أنور السادات ، لو كان قد وافق على ضرب رأس الجسر الذى أقامه الإسرائيليون والذى كان الجيش المصرى قد تدرب على ضربه وخصص له اللواء 25 المدرع الذى لم يسمح السادات بإعادته من شرق القناة إلى غربها حين اكتشفت الثغرة ليتولى القضاء

عليها تماماً . ولو كان هذا قد حدث لما اضطرت مصر إلى دخول مفاوضات فض الاشتباك ولحصلت على الجلاء الإسرائيلى الكامل عن سيناء دون التورط فى اتفاقية كامب ديفيد الأولى ، مما يجد القارئ له تفصيلاً فى المقالة التى كتبها السيد حافظ إسماعيل مستشار الأمن القومى المصرى آنذاك ، ونشرها بمجلة المصور فى العدد 3075 (13 مايو 1983).

ورابعاً : اتضح فى الأيام التالية أن هذا الإعلان المزور المحرض فى الأهرام ليس سوى الخطوة الأولى والتمهيد المبدئى لعملية مخططة تماماً وموزعة الأدوار ، فقد فوجئت فى اليوم التالى بانعقاد المجلس الأعلى للصحافة ، وما دار فيه من مناقشات كلها اتهامات صارخة بأنى قلت إن حرب أكتوبر ((تمثيلية)) وإن هذا إجرام فى حق بطولة الجيش المصرى واستهتار ما بعده استهتار بدماء الشهداء الأبطال وكأنهم ماتوا وهم ((يمثلون)) الاستشهاد.

إعلان تنشره جريدة خليجية بطريقة مثيرة عن سلسلة مقالات لى ، ويضيف له مدير تحرير الأهرام من عنده على لسان قارئ أننى فوق التساؤلات عن حقيقة دور السادات ، قلت إن حرب أكتوبر تمثيلية . يجتمع المجلس الأعلى للصحافة ، يأخذ هذا القول المزور على أنه حقيقة ويبنى عليها اتهام ، ودون أن يسمع المجلس وجهة نظرى ، أو يحفل بأن يرى المقالات أو يقرأها ويرى إذا كنت حقاً قد قلت هذا الكلام أم لم أقله ، يخرج بإدانة صارخة لما كتبته وإدانة لى ككاتب.

وهذا الذى لم يحدث فى بلاد الماو ماو ، يحدث فى القاهرة فى عام 1983 وفى ظل ظروف انفراجة ديمقراطية ، وفى ظل حرية صحافة ..

ومع هذا ..

فقد حاولت أن أنشر تكذيباً لما ذكرته الأهرام فى الأهرام ، فرفض مدير التحرير المذكور نشره .

وحاولت نشر التكذيب فى كل الصحف ((القومية)) الأخرى ، فرفضت جميعها .

وحاولت الدفاع عن نفسى وإدانة قرار المجلس الأعلى للصحافة ، باعتباره قراراً باطلاً ، بنى على كلام باطل ، ودون أن يسمع لى رأى أو يقرأ أحد ما كتبته .

وأيضاً ، رفضت كل الصحف المصرية الحكومية أن تنشر لى حرفاً .

وبناء على تزوير مدير الأهرام ، وإدانة مجلس الصحافة ، بدأت حملة ضارية من المقالات والاتهامات ، تتهمنى بنبش قبور الموتى ، وأنى نافقت السادات حياً

وهاجمته ميتاً ، وأن السادات عالجنى على نفقته ، بل وأضاف رئيس تحرير ((مايو)) اتهاماً آخر من عنده ، بأنى كتبت هذه المقالات بأمر من القذافى ، ونشرتها فى جريدة ((القبس)) الكويتية ، بل ووصلت الحملة الإرهابية إلى حد أن كاتباً من كتاب الأعمدة فى جريدة الأخبار ، زعم أن مقالاتى ، وكتاب ((هيكل)) ، لم ينشرا صدفة ، وإنما هما جزء من خطة دولية بتوجيه من موسكو ، لإفشال المفاوضات اللبنانية الإسرائيلية وإشاعة جو الفوضى فى المنطقة .

وكل هذا يحدث دون أن يقرأ أحد ما نشر فى المقالات ، إنما كله مبنى فقط على حكاية ((التمثيلية)) التى زورها مدير الأهرام على لسان قارئ .

والحقيقة أن المفاجأة الكبرى كانت أول مايو ، ففى صباح ذلك اليوم نشرت جريدة الأخبار موضوعها الرئيسى عنى وعن كيف أنى اغتلت نفسى بنفسى ، وكيف أنى انتهيت ، وأن الأسى يقطع قلب كاتب المقال (ثبت أنه موسى صبرى) على ما وصلت إليه .

ولم أكن أتصور أن كذبة بدأها مدير تحرير الأهرام ، ممكن أن تتضخم ككرة الثلج ، وتتحول إلى ((حقيقة)) ، تديننى من أجلها كل الصحف الحكومية ، بل و ((تفبرك)) خطابات من قراء لأخبار اليوم ، تستهجن ما فعلته ، وتطالب برأسى ، ويطالب كاريكاتير منشور فى نفس الصحيفة الجيش المصرى العظيم بأن يسحق هذا المفترى على بطولته المجيدة فى أكتوبر .

لكى يتصور القارئ مقدار ذهولى من هذه الحملة المدبرة بعناية وإحكام ، فليتصور أن جريدة ما فى مصر نشرت أنه ((أى القارئ)) يقول عن ثورة عرابى مثلاً أنها تمثيلية متفق عليها بين عرابى والخديوى والإنجليز. تستيقظ أيها القارئ من النوم فتجد اسمك مقروناً بالتهمة ، فتحاول تكذيبها ، فإذا بالجرائد كلها تتلقف الكذبة مقرونة باسمك بالطبع وتحرض الناس والجيش والدولة وكل وطنى يؤمن بالثورة العرابية عليك ، ولا يسمح لك بأن تنشر أن هذا كذب وأنك لم تقل ، وحين تتفرع الاتهامات فيزيدون عليها بأنك قلت هذا الرأى فى الثورة العرابية تنفيذاً لتعليمات رئيس دولة أجنبى .

وحين يحدث لك هذا أعتقد أنك ، ما دمت مطمئناً إلى الحقيقة ، وأن شيئاً كهذا لم يحدث ، ستقول إنها مسألة حقد مهنى وأن الحق لا يلبث أن يظهر ، وأن كل شئ سيتضح وأنك ستأخذ حقك كاملاً من هؤلاء الذين حاولوا تشويه سمعتك وشخصك .

ولكن ..

حين تحاول أن تـُكذِب وتصحح فتجد أنك ممنوع من القول ومن الكتابة .

وأن نشر الكذبة لم يكن إلا مقدمة بسيطة لخطة خبيثة مدبرة لإقناع جماهير القراء أنك قلت وفعلت وارتكبت كل ما يلصقونه بك .

حينذاك تبدأ تغضب .

وتبدأ تحس أنك مخنوق ، وأنك ، وأنت الكاتب ، تجرب أسوأ تجربة ممكن أن يمر بها إنسان : حرمانه من قول رأيه أو الدفاع عن نفسه . وهذا بالضبط ما كنت أحسه حين بدأت أستمع إلى خطاب الرئيس محمد حسنى مبارك فى عيد العمال .

فقد كنت مؤمناً أن رئيس الدولة بكل ما لديه من وسائل لمعرفة الحقيقة ، سوف يطلع على ما كتبته ، وأنه سيعيد هؤلاء الناس إلى رشدهم ، وسيضع النقط فوق الحروف ، ويوضح تماماً أن مسألة لقائى بالقذافى التى تمت فى أواخر العام الماضى 1982 والتى كتبت بشأنها تقريراً على هيئة خطاب أودعته مكتب الرئيس بعد عجزى عن لقائه ..

كنت أستمع لخطاب الرئيس وأنا متأكد أنه سيوقف هذه الحملة الظالمة ، وسيزجر من تسببوا فيها من كتاب وصحفيى الحزب الوطنى الحاكم ..

ولكن هذا للأسف لم يحدث .

وبدلاً منه وجدت كلمات أخرى ، ولندع هذا العمود الذى نشر فى جريدة حزب العمل ((الشعب)) تعليقاً على خطاب أول مايو ، والذى أخبرنى الأستاذ حامد زيدان رئيس التحرير أن كاتب العمود هو الأستاذ الدكتور محمد حلمى مراد ، يقول :

((اتهم الرئيس حسنى مبارك فى خطابه يوم عيد العمال كاتباً معروفاً هو الأستاذ يوسف إدريس اتهاماً خطيراً يعتبر ـ حسب تعبير الكاتب ـ طعنة فى صميم وطنيته وذمته وكبريائه .. ومجمل هذا الاتهام أنه تقاضى خمسة آلاف دولار من الرئيس الليبى معمر القذافى ليكتب مقالاته التى نشرها فى جريدة القبس الكويتية والتى أثير حولها الصخب والضجيج دون أن يطلع أحد عليها ، ودون أن يسمح لكاتبها ببيان وجهة نظره .

وقد أنكر الكاتب الموجه له هذا الاتهام الخطير على لسان رئيس الدولة ما طعن به ، ونشر مقالاً بهذا المعنى فى صحيفة الأحرار ، وهى الصحيفة التى قال إنها قبلت أن تنشر له دفاعه عن نفسه بعد أن أغلقت الصحف المسماة بالقومية فى وجهه ، حتى جريدة الأهرام التى يعمل بها .

وصاغ الكاتب هذا المقال فى صورة خطاب مفتوح إلى الرئيس مبارك بعنوان ـ إننى أتظلم منك إليك ـ وأعلن فيه : ((إن طعنى فى شرفى وعلى الملأ هكذا ، مسألة أهون منها عندى حكم الإعدام .. إذ أن طعن الكاتب فى شرفه من رئيس الدولة إعدام ، إنه حكم بالإعدام ، وإعدام غير مشرف .. وذكر أنه يجب الفصل بين مقابلته للقذافى التى أخطر الرئيس مبارك بعد عودته بما تم فيها ، فى خطاب سلمه لسكرتاريته الخاصة بعد أن عجز عن تحديد موعد لمقابلته ، وبين ما كتبه فى إحدى الصحف العربية نتيجة عدم إتاحة الفرصة له بالكتابة بحرية فى جريدة الأهرام التى يعمل بها .. وقرر أنه ضحية مؤامرة كبرى من بعض الجرائد القومية وصحيفة ((مايو)) وعشرات الأقلام الخبيثة لتؤلب عليه الرأى العام والقوات المسلحة ورئيس الجمهورية ، وأنه كان كفيلاً بهم جميعاً ، لو أتيح له أن يرد عليهم حيث يكتبون ، أما حين يستغيثون بالرئيس وينصفهم ، ويخذله ، فليس عليه إلا أن يتظلم منه .. إليه ..

وقال بصراحة : ((إذا كان بعض الناس ، وبعض الأجهزة قد وضعت أمام سيادتكم معلومات هى التى دفعتكم لهذا القول ، فإننى لا أطالب فقط برد اعتبارى ، وإنما أطلب وألح أن يحاسب هؤلاء الأشخاص وتحاسب تلك الأجهزة .

وهذا ما نطالب به ، ويتلخص فى إجراء تحقيق قضائى حول هذا الاتهام الخطير ، إذ أنها سابقة خطيرة أن تقدم اتهامات لشخصيات عامة أو خصوم سياسيين أو أصحاب الفكر وحملة الأقلام ضمن تقارير مشكوك فيها ودون أن تستند إلى أدلة قاطعة لابد أن تعرض على القضاء للتحقق منها قبل أن تلطخ سمعة أحد من هؤلاء ، لما ينطوى عليه ذلك من إرهاب فكرى شنيع .

وإذا كان وزير الداخلية السابق النبوى إسماعيل قد لجأ إلى هذا الأسلوب بالنسبة لاتهام النائب السابق أحمد طه وآخرين معه بالتخابر مع دولة أجنبية هى بلغاريا للتأثير على موقفه الانتخابى ، وبالنسبة لاتهام المرحوم الدكتور المهندس محمود القاضى ونائب رئيس مجلس الوزراء السابق عبد السلام الزيات وعدد من الشخصيات السياسية ممن كانوا تحت التحفظ فى سبتمبر المشئوم بالتخابر مع دولة أجنبية أخرى وهى الاتحاد السوفييتى ، ثم ثبت من التحقيق فى الاتهامين عدم صحتهما . إن من الواجب وضع حد لهذه الأساليب البشعة والمفارقات التى كنا نعتقد أنها انتهت بانتهاء عهد النبوى إسماعيل الذى يجب محاكمته عنها)).

وإلى هنا تنتهى كلمة جريدة الشعب .

والحقيقة أننى وأنا أجلس الآن ، وشريط الأحداث يمر أمام عينى ، وأعود مرة أخرى أعيش أحداث العاصفة الهوجاء الكاذبة المليئة بالرمل والتراب والقذى . الآن ، وبعد أن اتضحت حقائق كثيرة ، واتضح للجميع أننى لم أذكر أبداً كلمة

تمثيلية ، وأن لقائى للقذافى أو للرئيس مبارك لا علاقة له من قريب أو بعيد بما كتبته وما أكتبه وأن الموضوع كله كان مؤامرة حقيرة لاغتيالى ككاتب ، والإيقاع فى وقت واحد بينى وبين رئيس الجمهورية ، وبينى وبين قواتنا المسلحة البطلة وبينى وبين قرائى والشعب المصرى بأجمعه ، وأن هذه المؤامرة الدنسة إذا كانت قد فشلت تماماً وارتدت إلى نحور أصحابها ، فإنى إذ أنشر نص مقالات ((البحث عن السادات)) ، لا أفعل هذا فقط لأنشر الحقيقة على الناس ، وإنما لأطالب بعدها بمحاسبة كل مقامر أو مجرم اشترك فى هذه المؤامرة .

فهى لم تكن مؤامرة على وحدى وإنما أيضاً مؤامرة على قيادتنا السياسية وعلى رئيس الدولة ليجعلوه ((يضرب)) على الملأ ، كاتباً وطنياً ليس فى تاريخه شبهة اتهام أو حتى مجاملة لأحد ، ليجعلوا من هذا الكاتب رأس الذئب الطائر الذى يخيفون به المعارضة ، وكل إنسان مخلص يخطر له قول رأى فى السادات وعصره يخالف رأيهم . وهكذا أقول مرة أخرى : لقد بدا واضحاً الآن أن الرئيس السادات ، وإن كان قد مات ، ومات على هذه الصورة البشعة وكأنها صورة تنفيذ حكم إعدام فى خائن ، إن كان قد مات ، فإن العصابة الصحفية التى عينها فى حياته ، واختارها بعناية لتنافق كل خطوة يخطوها ، وكل تفريط فى حقوق الشعب المصرى يفرط به ، وتزين للناس كل أخطائه على أنها مزايا ، وتفلسف تفريطه المهول فى المفاوضات مع إسرائيل وأمريكا على أنه انتصار ما بعده انتصار ، واضح تماماً أن هذه العصابة لا تريد أن تحمى السادات وسياساته ، ومنها على سبيل المثال إدارته السياسية لحرب أكتوبر على تلك الطريقة المغرقة فى تهافتها بحيث ضيع علينا انتصار جيشنا العظيم فى حرب أكتوبر ، واضح تماماً أنهم يريدون إغلاق الأفواه وعصب الأعين عن أن نرى ما فعله السادات بنا ، مثلما كانت تغلق الأفواه وتعمى الأعين عما يفعله أخوه عصمت وعائلته من نهب لم يحدث له مثيل فى كل تاريخ مصر ، ولولا أن عصمت السادات قدم للمحاكمة بعد موت أخيه لما كان أحد قد عرف أو تصور كم ونوع الجرائم التى ارتكبتها الأسرة الساداتية الحاكمة .

ولأنى أعتبر أن جرائم عصمت السادات الذميمة والجنائية ، رغم ضخامتها وبشاعتها ، لا تعد شيئاً بجوار الجرائم السياسية التى ارتكبها السادات ، فإنى فى هذه المقالات ، لم أكن أبحث عن سرقة هنا أو اختلاس لثروات هناك ، لم أكن أبحث حتى عن اتفاقه مع الإسرائيليين على مشروع يحول لهم فيه ماء النيل فيما كان يريد تسميته (ترعة السلام) التى لا تزال مواسيرها وبكم هائل موجودة فى الدلتا وبجوار قناة السويس ، استعداداً للتنفيذ ، لا أتحدث فى تلك المقالات عن الآثار المسروقة والمنهوبة والمباعة ولا عن مشروع قصر العينى ولا جمعية الوفاء ، ولا أى جرائم استغلال نفوذ ، فهذا كله شئ آخر غير ما هدفت إليه . فما هدفت إليه كان محاولة لرسم الدور الخطير الذى لعبه أنور السادات بالاتفاق مع الأمريكان وإسرائيل ، وحول به مصر من دولة مستقلة ذات سيادة إلى دولة تابعة خاضعة للنفوذ الأمريكى والإسرائيلى تماماً ، معزولة عن كل العرب والأفارقة ، مطرودة من

كل اجتماع عربى أو إسلامى أو عدم انحياز أو إفريقى ، دولة منبوذة مستباحة يكرهها العالم كله إلا أمريكا الشريك الكامل ، وإسرائيل المنبوذة هى الأخرى ، بحيث تشكل هى وجنوب إفريقيا ومصر السادات ثلاثياً مرفوضاً على مستوى العالم كله ..

كان هدفى أن أرى ماذا حدث لنا ، وكيف حدث لنا ، ودور السادات فيه .. فليس الفساد الاقتصادى ، ولا السرقات هى أبشع الأشياء ، إن الفساد السياسى والجرائم السياسية أخطر بكثير من أى سرقة أو اختلاس ، فهى جرائم فى حق الشعب المصرى كله .

***

والملف لا يزال مفتوحاً ..

وإن كان من فضل لتلك المقالات فى البحث عن السادات وعصابة السادات ، إلا أنها مع غيرها ، قد فتحت الملف السياسى الساداتى ليعرف المصريون والناس جميعاً كيف غرر بهم فى حربهم المجيدة مع إسرائيل وإخضاعهم رغم أنفهم للسياسة الاستعمارية الأمريكية ، بحيث يسلم الاستقلال العظيم الذى حصلت عليه مصر بثورة 23 يوليو وكفاحها الوطنى المجيد عبر مائتى عام وتزيد مروراً بالثورة العرابية وثورة 19 وثورة 46 ، يسلم هذا الاستقلال بمؤامرة لم يحدث لها مثيل ، وبلا أى مقابل ، ليصبح محل عبث وتصرف إسرائيل والاستعمار الأمريكى .

إن جزءاً كبيراً من تلك المؤامرة ، يكمن فى إخفائها عن المصريين ، وفى إبقاء عيونهم مغلقة عن أن ترى أى وضع رداهم فيه السادات بسياسته ، وفى إبقاء وعيهم غائباً ، مشتتاً للحصول على القوت الضرورى ، مجرد الحصول على الغذاء والكساء واتقاء شر الحوادث والمصائب ، بحيث يغيب الوعى ويضل العقل ، ولا يعود المواطن المصرى يرى أو يهتم إلا بأمور حياته وليومه هذا فقط .

وإذا كانت الخطة العظمى قد دبرت غزو لبنان وتشريد الفلسطينيين و إشغال العراق بالحرب مع إيران ، والجزائر والمغرب بالبوليزاريو والسودان بليبيا ، وليبيا بتشاد ، واليمن باليمن ، والسعودية بالأوبك ، وسوريا بالعراق والأردن وإسرائيل ، والأردن بالفلسطينيين ، فإن الخطة بالنسبة للشعب المصرى هى إيهامه أن مصلحته العليا هى فى نفض يده تماماً من العرب ومشاكلهم وكأن خمسة ملايين مصرى لا يعملون فى الدول العربية وكأن معظم الدخل المصرى الخارجى لا يأتى على هيئة تحويلات من المصريين العاملين هناك .. وكأن من الممكن تصور وجود مصرى ((مستقل)) عن العرب ، أو وجود عرب مستقلين عن مصر .

تلك هى الكذبة الكبرى التى جعلنا السادات بوسائل إعلامه نؤمن بها ونصدقها ، والتى آن الأوان للكشف عن محتواها الخبيث ، فإن حصار الوجود المصرى داخل حدود مصر الجغرافية هو إضعاف لمصر وخيانة لها ، ولوجودها الحقيقى الكامن فى امتداد نفوذها وعلاقتها إلى الدول العربية كلها ، فهى بمثابة القلب لتلك الدول ، وإذا خلصنا القلب من الجسم ، فماذا يتبقى من قوته ؟ إن قوته تكمن فى الوجود داخل جسد حى يتفاعل معه ويزوده بالدم الذى يضخه .

لقد عشنا فى تلك الأكذوبة الكبرى التى كان القصد منها إضعاف مصر إلى حد العدم ، إلى حد عدم الفاعلية تماماً ، وشلها عن أن تؤدى دورها الطبيعى ويكون لها حجمها الطبيعى ، وعمل هذه الجريمة بدعوى (العيش فى سلام ورخاء !) . فأين هو السلام وثمة 17 فرقة إسرائيلية مستعدة ورابضة فى صحراء النقب وكأنها المسدس المرفوع كى لا نحرك قدماً أو يداً ؟ ، وأين هو الرخاء والأسعار قد أصبحت ناراً موقدة ونحن فى قمة ((السلام)) ؟ بينما كانت أقل بكثير ونحن فى قمة ((الحرب)) ، والاستعداد للحرب ؟

إنى لا أريد بهذا التعليق أن أكتب كتاباً آخر أبحث فيه خدعة ((السلام)) التى نحيا فيها ، وخدعة نفض يدنا من العرب ومشاكل العرب التى جعلتنا ننعزل وننكمش داخل حدودنا يفترسنا غول الغلاء ، والمشاكل اليومية المتكاثرة ، فجزء من المؤامرة الكبرى لكى لا يفكر الشعب المصرى فى واقعه وفيما دار من وراء ظهره هو إشغال الناس تماماً بأمور حياتهم اليومية ومتاعبها حتى لا يبقى لديهم وقت لإعمال أى فكر أو تأمل ، وفى البقاء فى حالة ((التولة)) التى كتبت عنها مرة فى مفكرتى بالأهرام .

***

ونحن لا يمكن أن نعالج ((التولة)) بمزيد من التولة . إنما نعالجها بأن نفيق ، بأن نصحو ، بأن يستيقظ منا الوعى والعقل ، بأن نعرف من يضحكون علينا ويخدروننا ويخدعوننا ، بأن نكشفهم ، بأن نكشف لماذا يقفون تلك المواقف ولماذا يدافعون باستماتة عن عصر أدى بنا لما نحن فيه الآن .

***

وإذا لم تكن تلك المقالات قد فعلت إلا أنها كانت شمعة ضئيلة أوقدت فى الظلام الدامس ، وأنها مع غيرها من الشموع والحقائق ، ستهزم جيوش الظلام ، وحتماً ، وعلى الضوء المنهمر المتكاثر سنرى ، وعلى النقاش مهما علا ، سنصحو .

إذا لم تكن قد فعلت سوى هذا ..

فأشكر الله أن هدانى كتابتها ونشرها .

وحمداً لله أنى فعلت وأرضيت ضميرى .

وأهلاً بكل نتائج إرضاء الله والضمير .

بقيت كلمة أخيرة :

كان المنطق البسيط يحتم أن تظهر هذه المقالات أولاً ، وبعد هذا تتم مناقشتها أو إدانتها ، وليس غريباً أن يحدث فى عصرنا هذا العكس تماماً ، فتنشب معركة صاخبة حول كلمة مزورة عن حرب أكتوبر ، لا علاقة لها بالخط الأساسى للمقالات ، ثم يكون آخر شئ أن ينشر نص المقالات كلها ، بعد أن ينتهى الصخب المفتعل وتمطر السماء شتائم واتهامات ..

إليكم المقالات إذن ، ولا أطمع فى مناقشتها فليس لدى كتاب السادات عقول تناقش ، وأى إنسان يحترم نفسه ويرى ما لا أراه يتحرج قطعاً أن ينضم إلى القطيع الساداتى المأجور ويرى ما لا أراه فى السادات ، ولكنها شهادة أضعها أمام التاريخ وأطلب من المواطنين جميعاً ، حتى لو كان بعضهم قد خدعته الدعاية الأمريكية الساداتية ، أن يجلس على مهله ، ويقرأها ، ويتأمل ، ويصدر لنفسه حكماً .

وفى نفس الوقت أتقدم بهذه المقالات إلى النائب العام والمدعى الاشتراكى مطالباً بالتحقيق معى فى كل كلمة كتبتها وشاكياً فى نفس الوقت كل أجهزة الدولة الرسمية والصحفية والإعلامية ، بما فيها رئاسة الجمهورية للإهانة العلنية التى وجهت لى دون تحقيق أو مستند ، طالباً محاسبة هذه الجهات كلها عما اقترفته فى حقى من ذنب مهول .

وأنا راض بحكم القضاء المصرى العادل ، وراض تماماً بحكم الرأى العام ، فبعد رضاء الله والضمير ليس أجمل من رضاء الشعب العظيم .

الدكتور يوسف إدريس

القاهرة - يونيو 1983

هذا هو النص الحرفى للكتاب الذى أخذت حق نشره جريدة ((القبس)) الكويتية ، ونشر على هيئة سبعة فصول فيها وفى صحف الخليج والأردن بعنوان : ((البحث عن السادات)).

السؤال الملح

حتى والسادات لا يزال يحيا ، كنت ، مثل الكثيرين غيرى نعتقد أن حكمه ذاك وما قام هو به ، والنتائج الهائلة التى ترتبت على مواقفه وتصرفاته وأفعاله تشكل فصلاً من أغرب ، إن لم يكن أغرب فصل فى تاريخ منطقتنا كله .

ولننح جانباً كلمات الخيانة والعمالة والدور المخرب وعميل الـ ((سى . آى . إيه)) ، وكل تلك الصفات التى أطلقت عليه منذ البدايات الأولى لحكمه ، فلا أعتقد أن حاكماً عربياً آخر ، أو حتى أى حاكم فى الدنيا قد ظفر بهذا الكم من الاتهامات .

لننح الصفات أو الجرائم ، أو الاتهامات جانباً ، فما أكثر ما وصف بها كثيرون غيره ، لننح حتى الصفات التى وصفت بها أعماله ، وأهمها مبادرة القدس وكامب ديفيد ومعاهدتى السلام مع إسرائيل ، لننح هذا كله جانباً.

ذلك أننا غرقنا فى وصف التهمة والتهم ، وغرقنا فى أخذ ما حدث وكأنها جرائم ((تمت)) وصدرت فيها الأحكام ، وكأن مصرع السادات وعلى تلك الصورة التى لم تحدث من قبل لا فى منطقتنا ولا فى العالم كله ، كأن مصرعه كان نهاية النهاية وتنفيذ حكم الإعدام فى ((الخائن)) وإغلاق الدوسيه ، وانتهاء الأمر.

فالأمر لم ينته أبداً ..

والأمر فى حاجة ، ليس لإعادة النظر ، ولكن لرؤيا أعمق وأشمل بحيث نرى السنوات العشر الماضية عن بعد ونضعها فى منظورها الصحيح داخل تاريخنا الحديث ، بحيث نرى أيامنا الحاضرة هذه نفسها ضمن ما كان ، فالرواية لم تنته بإطلاق الرصاص على السادات ، والدوسيه أبداً لم يغلق ، والحاضر أهم ألف مرة من كل ما فات ، حاضر لكى نعرفه لابد أن نعود نعرف ما فات ، بعيون مفتوحة إلى آخرها ، ففى ذلك الذى فات تكمن بذور وجذور وسيقان الحاضر .

وهكذا ظللت منذ اغتيال السادات أفكر .

ما هذا الذى حدث ؟ وكيف حدث ؟ وهل السادات كان مجرد خاطئ كبير ؟ أو آثم ؟ بمعنى هل كان شخصه وأفعاله هى المشكلة كلها ؟ أم أن التاريخ ليس مجموعة من أعمال أفراد عقلاء أو مجانين ، بريئين أم مجرمين ؟ التاريخ أو بالأصح هذه الأزمنة التى نحياها لا تحدث المسائل فيها صدفة أبداً . إننا فى حقبة تاريخية تصنعها الخطط المدبرة بعناية والمنفذة بدقة ، والتى فى صميمها ومضمونها

وتنفيذها تضع حساب الخطأ نفسه فى التنفيذ لو حدث الخطأ ، وتضع البدائل ، وتحسب الحساب لكل شئ .

كان السؤال الذى ظل يلح على هو التفريق بين دور السادات واتهاماته وبين بقية الأدوار والخطط ، فالسادات لم يكن على المسرح وحده ، ولم تكن الأحداث كلها تدور فى القدس أو ميناهاوس أو كامب ديفيد ، بل إنى بدأت أشك أن جزءاً من (الكاموفلاج) الموضوع للعملية كلها أن تركز الأضواء جميعها حول بطل واحد من أبطال المأساة وتركز الضجة كلها حول مواقفه وخياناته بحيث تتم بقية الفصول بعيداً عن الأضواء ، وفى صمت شبه تام .

بالضبط : ماذا حدث ؟

وهكذا أخذت على عاتقى مهمة أن أفرغ وأنتهى إلى رأى أخير عن الموضوع كله .

ما هذا الذى حدث ؟

وكيف حدث ؟

وهل هو لا يزال يحدث أم أن الرواية قد انتهت فصولها ؟

كان لابد أن أقوم بدراسة عميقة جادة لما حدث خلال وقبيل حكم السادات ، وإلى الآن ، دراسة لنفسى أولاً كى أستطيع أن أفهم شخصياً وأن أرى . ولم يكن فى نيتى نشر هذه الدراسة ، أو على الأقل كتابتها للنشر ، كنت فقط أريد أن أسلح نفسى بضوء كاف أرى على هداه كل ما تلا وما لا يزال يتلو من أحداث .

وفى سبيل القيام بهذه الدراسة ناقشت عدداً كبيراً من الناس ، أوثر أن أحتفظ بأسمائهم ، فبعضهم يحتل مناصب خطيرة ، وبعضهم لا يريد الجهر بآرائه ، وبعضهم لا أحب أن أحمله مشقة إيراد اسمه فى موضوع أكتبه ، خاصة إذا كنت قد قررت أن أنشر الموضوع ، وقد بقى أسابيع كثيرة قابعاً أمامى فوق ركن المكتب ، إلى أن وجدت أنه ليس هناك من حرج أبداً فى نشره على أوسع نطاق ، فهى مسائل لا تخصنى وحدى ، وإذا كنت قد سعيت إلى كثير من الناس أسألهم الرأى وأناقشهم ، فلم لا أشرك معى كل من يريد الاشتراك من القراء وغير القراء.

بل لم أكتف بالمناقشات وبالتأمل الذاتى .

عكفت على دراسة مذكرات هامة جداً نشرت خلال العام الماضى .

ففى العام الماضى والأشهر القليلة الأخيرة من العام الذى سبق قرأت :

مذكرات هنرى كيسنجر أو على الأقل كل ما نشره إلى الآن منها .

ومذكرات جيمى كارتر .

وأجزاء من كتابات كثير من الذين عاصروا وشهدوا أحداث ووقائع زيارة القدس وكامب ديفيد مثل مذكرات عزرا فايتسمان .

وما نشره سعد الدين الشاذلى عن حرب 73 .

ومقالات ومذكرات إسماعيل فهمى وزير الخارجية المصرية الأسبق الذى استقال احتجاجاً على مبادرة القدس .

وأخيراً قرأت مذكرات محمد إبراهيم كامل وزير الخارجية المصرية الذى عينه السادات ليخلف إسماعيل فهمى ، بمعنى أنه بقبوله هذا التعيين وعقب استقالة إسماعيل فهمى وبعد مبادرة القدس كان موافقاً وجاء لينفذ ـ مقتنعاً ـ إطار ومضمون السلام المفروض أن يقوم بين مصر وإسرائيل .

محمد إبراهيم كامل هذا نفسه الذى كان عضواً فى وفد المفاوضات المصرى إلى كامب ديفيد ، ذلك الراضى و ((القابل)) لمبادرة القدس وقيام السلام ، والذى اعتبر حين عين واحداً من الدائرة الداخلية الأساسية للنظام الساداتى ، أن يستقيل رجل كهذا بسبب ما اكتشفه وما دار فى كامب ديفيد مسألة ليست محيرة فقط ، ولكنها وكأنما تقولها عالية عريضة لكل أصم : إن ما حدث فى كامب ديفيد مسألة مرفوضة تماماً ، حتى من الرجل الذى تحمس السادات لتعيينه وترقيته فجأة من سفير إلى وزير خارجية . وعن حماس أيضاً قبل أن يكون رجل السادات ومعيناً له فى مهمة كانت ممجوجة تماماً ، حتى من أناس داخل النظام الساداتى ، ألا وهى مهمة عقد معاهدة سلام شبه منفردة بين مصر وإسرائيل .

أن يستقيل رجل كهذا وأن يبدأ ينشر مذكراته ، ويشرح لماذا استقال ، وماذا دار داخل ، على رأى العقيد القذافى كما وصفها أيامها ((إسطبل داود)) مسألة كان مفروضاً أن تستوقفنا طويلاً وعميقاً أمامها.

الاحتمالات الأربعة المرعبة !

ولقد جاء نشر مذكرات وزير الخارجية الأسبق للأحداث والوقائع الداخلية لما دار فى كامب ديفيد ، بعد ما قرأنا وصفاً لها على لسان جيمى كارتر ، وتمهيداً رهيباً بالمدفعية الثقيلة فى مذكرات هنرى كيسنجر ، جاء هذا النشر وكأنه الضربة التى قصمت ظهر البعير . والبعير الذى كان عندى هو بالضبط : ما هذا الذى صنعه السادات بنا ، وبالعرب ، وبالعالم ، وحتى بنفسه ؟

ذلك أنى كنت قبل هذا دائم التساؤل عن كنه وعلة ما حدث ودار .

* هل كان أنور السادات حسن النية فى داخله ، غبياً أو حتى متخلفاً عقلياً أمام خصوم هم القمة فى الذكاء والاستدراج واستعمال أذكى ما تفتق عنه العقل البشرى من وسائل لغسل أمخاخ بعض قادة العالم الثالث ، وبالذات لغسل مخ رئيس جمهورية مصرى جاء عقب احتلال مصر لمكان الزعامة فى وطن عربى بدأ يتعرف على ذاته وينسق ويتحد ويهدد بأن يصبح القوة السادسة فى العالم ؟

* أم هو لم يكن غبياً وإنما كان يعرف حقيقة الدور الذى يقوم به وكان واعياً تماماً بما يراد للأمة العربية على يديه من أن تحييد مصر تماماً - عسكرياً وسياسياً وشعبياً - عن الحرب القائمة بين إسرائيل والدول العربية مجتمعة وعن الخلافات الجذرية القائمة بين كثير من الدول العربية وأمريكا ، باعتبار أن تحييد مصر وعزلها - سيسهل مهمة تفكيك الحلف العربى المتبقى ثم هدمه تماماً قطعة قطعة وابتلاعه على مهل وفى حال من تمام الاطمئنان ؟

* وهل كان وعى السادات بدوره هذا وقبوله القيام به ، بل وحماسه الغريب فى تنفيذ المهمة ، لأسباب مبدئية ؟ أى أنه كان يحب إسرائيل وأمريكا ويكره العرب ويكره حتى الشعب المصرى ومصالحه الحقيقية ، كراهية مؤمن بالنظام الرأسمالى الاستعمارى الأمريكى والنظام الاستيطانى العنصرى اليهودى .. إيماناً لم يوجد له نظير فى تاريخ العالم الحديث كله ، فحتى عملاء أمريكا الرسميون من الحكام لم يكونوا بالضرورة مؤمنين بأمريكا وإنما كانوا يحتمون بها من شعوبهم أو خوفاً من جار شيوعى أو انقلاب عسكرى ، أما ((الإيمان)) وإلى هذه الدرجة ، وفوقه إيمان آخر لا يقل عنه صلابة بالعنصرية الإسرائيلية الصهيونية ، فشئ لا نجده أبداً لا فى ديكتاتوريى أمريكا اللاتينية عملاء الـ ((سى . آى . إيه)) ، ولا فى حكام بعض بلاد جنوب شرقى آسيا ، أو أوروبا ، أو حتى جنوب إفريقيا أو نظام إيان سميث

العنصرى فى روديسيا ، أبداً لا نجد لهذا الإيمان نظيراً أو شبيهاً فى العالم كله ، فما بالك بإيمان كهذا رسمى من مصر ، وعقب حكم أخطر زعيم مصرى أعاد اكتشاف عروبة مصر ودورها التاريخى المحتم ، وجعل من القضية المصرية التى ظلت لخمسة وسبعين عاماً ومنذ أيام عرابى قضية مصرية فقط ، جعل منها قضية عربية ، بمعنى أن الدعوة إلى التحرر الوطنى والاشتراكية أضيفت لها الوحدة فى شكل دعوة قومية عربية نقلت المطلب الوطنى المصرى من مفهوم القرن التاسع عشر إلى مفهوم القرن العشرين مثل البحث عن الأصول والجذور واكتشاف الترابط وعلاقة العظم والدم بين مصر وبقية أنحاء الوطن العربى .

أن يأتى هذا الإيمان من خليفة من ؟ من خليفة عبد الناصر مفجر وقائد هذه الثورة فى المفهوم الوطنى والقومى والذاهب فى عدائه لإسرائيل باعتبارها الخنجر المغروس فى قلب هذه الأمة بالذات من أجل قتل هذه الروح ، ومنع قيام الأمة العملاقة العربية ، الذاهب فى عدائه لإسرائيل إلى حد عدائه لأوروبا حين كانت تؤيدها وللولايات المتحدة الأمريكية ، أقوى قوة عسكرية فى العالم ، رجل كهذا ، يخلفه أو بالأصح يختاره عبد الناصر ليتكشف بعد هذا أنه جاء ليس ليهدم فقط كل ما بنته الأمة وعبد الناصر على رأسها فى ربع قرن ثائر حاسم مهول ، وأن يؤمن بأعداء الأمة والفكرة والثورة إلى درجة لم يؤمن بها أحد من قبل أو من بعد ؟

هل فعل السادات هذا كله تحقيقاً لمبدأ كان ، كأى صاحب مبدأ آخر ، يعتنقه ؟

* أم أن إيماناً ما ، لم يكن هناك بالمرة ، وأن السادات قام بدوره وهو مدرك تماماً لقذارة ذلك الدور ، ولكن قوة عاتية مركبة هى التى ساقته طائعاً مختاراً ليفعل ما فعل ، وجشع ذاتى مريض كان كامناً وموجوداً بل ومعروفاً ، بالذات لعبد الناصر ، كما سنرى فيما بعد ، جشع ذاتى رهيب للملذات بكل أنواعها ، وللغنى بكل أنواعه ، وللانحراف بكل فصائله المعروفة منها وغير المعروفة ، وطبع بالسليقة خائن ومتآمر وعميل ، وقد وجد أخيراً القوة الشيطانية التى تستغله وتقوده وتركبه وتحقق به ما تشاء ؟

كيف رأيت المبادرة ؟

لقد سمعت وقرأت تخريجات كثيرة لهذا الذى فعله السادات ، وبالذات أيام مبادرة القدس ، فرغم كل شئ كان السادات حتى ذلك الوقت قد حارب إسرائيل فعلاً ، وإن كان ما أحاط بتلك الحرب المحدودة والمتحكم سلفاً فى حجمها ونتائجها ، رغم أن ما أحاط بتلك الحرب من علامات استفهام وتعجب وأقاويل كانت كثيرة إلا أن أحداً حتى ذلك الوقت لم يكن ليتصور مطلقاً ، مهما جمح به الخيال أو حتى فقد العقل وجن ، أن ((مبادرة)) القدس لم تكن مبادرة تلقائية كما تصورنا جميعاً .

أنا شخصياً حتى ذلك الوقت ، وحين فعلها السادات وذهب إلى القدس قدرت أن الرجل الخبيث فيه ، ذلك الذى جعلنى أنفر منه بعد تعاملى معه حيث كان عضو مجلس قيادة الثورة المكلف بإصدار جريدة الجمهورية لتبشر بالميادين الثورية الجديدة وتخلق صحافة ثورية جديدة تحل محل الصحافة التى كان يملك ويدير سياستها عقليات متمصرة تعاونت تماماً مع الإنجليز وكانت دائماً مع الملك ضد الشعب ، حتى الصحف المصرية التى أصدرها مصريون ـ فيما خلا صحف حزب الوفد ـ كانت تلك الصحف كأخبار اليوم والقاهرة والجريدة المسائية سائرة أيضاً ، وبتكتيك أحدث وأرقى وأكثر جاذبية ، فى نفس خط تأييد وتأليه الملك والنيل من الوفد والدعاية لمشاريع المعاهدات التى كان يريد الإنجليز فرضها على مصر ، بمعنى آخر ، حين أرادت ثورة 23 يوليو أن تخلق صحافة مصرية الدم واللحم والثورة ، عهدت لأنور السادات بالمهمة ، وعرفته أنا والكثيرون غيرى أثناء عملنا معه فى جريدة الجمهورية عام 1958 ، ولكنى آثرت الابتعاد عنه تماماً بعد عام فقط ، فقد قبلت أن أعمل معه إيماناً منى بأعظم أحداث حياتى ، قيام ثورة حقيقية فى مصر أخيراً ، ثورة وإن بدأت عسكرية كالانقلابات السورية إلا أن الحركة الوطنية المصرية ظلت تحور فيها وتغيرها حتى جاء الامتحان النهائى فى تأميم قناة السويس والعدوان الثلاثى على مصر ، الثورة عام 56 ، هنا فقط بدأت مصر الشعب والمثقفين تقبل وتتحمس وتندفع بقوة واضعة نفسها تحت تصرف الثورة وقادتها ، من خلال هذا المنظار كنت أرى فى السادات ((بطلاً)) من أبطال ثورة يوليو ، ولكن التعامل معه كشف لى ـ كما سنرى ـ أنه لا بطل ولا يحزنون ، بل إن كثيراً من خصاله لا تصلح أن تكون لرجل عادى بسيط فما بالك بعضو مجلس قيادة ثورة وبطل ثورة ، وهكذا قطعت ـ منذ ذلك الحين البعيد عام 1959 وبعد عام واحد فقط من معرفته ـ صلتى به .

أعتذر أنى أقحمت نفسى على الموضوع ولكنى أريد أن أعود فأقول إننى تصورت حين قام السادات بمبادرة القدس بتلك الطريقة المفاجئة ، تصورت مع كثيرين غيرى أن المعجزة قد تمت وأن الرجل الذى أخذنا عليه المآخذ فى حرب 73 وفى

أحداث 18 و 19 يناير 1977 ، وفى طريقة حكمه كلها ، وفى سياسته الداخلية والخارجية بالذات ، وتعديه خط الخطر فى اقترابه بالسياسة المصرية من الخط الأمريكى ، تصورت أن الخبث الكامن فى الرجل بدأ يعمل لصالح القضية وأن مبادرة القدس لا يمكن أن تكون قد حدثت مصادفة وأن لابد وراءها اتفاق كامل وصل إليه السادات مع الإسرائيليين باتفاق مع الأمريكيين وجعلهم يقرون ويعترفون أخيراً بحق الشعب الفلسطينى فى وطن مستقل كامل على أرض فلسطين ، بل وحق الذين طردوا أو هاجروا من فلسطين المحتلة فى العودة أو التعويض ، وكذلك إعادة كل الأرض العربية التى احتلت عام 67 ، الجولان والضفة وغزة وسيناء والقدس الشرقية .

تصورت هذا كله ، وعلى أسوأ الفروض تصورت شيئاً آخر ، أن تكون هذه المبادرة قد تمت بالاتفاق مع سوريا والأردن والسعودية وبقية دول المواجهة بهدف تغيير صورة القضية فى نظر الرأى العام العالمى ، تغيير الصورة من دولة مسكينة قليلة العدد اسمها إسرائيل تعيش كالجزيرة المسالمة المحاطة بكراهية شعب عربى يريد تمزيقها إرباً وإغراقها وطمس وجودها تماماً ، تغيير الصورة بحيث يرى العالم ، عياناً جهاراً ، أن مصر ، أكبر وأقوى الدول العربية ، يذهب رئيسها ، بنفسه ، ليعرض على الإسرائيليين السلام الدائم والاعتراف بهم وبدولتهم وبحدودهم مقابل رد الحقوق والأرض العربية والفلسطينية المغتصبة ، وبهذا تسقط حجة إسرائيل التى تتذرع بها دائماً فى شن حروبها على العرب بحيث تعتدى على الأرض والجيوش والناس الأبرياء ، وفى نفس الوقت يؤيدها الرأى العام العالمى فى عدوانها ذاك ويجد لها المبرر والعذر .

تصورت أن مبادرة كتلك حركة جد خبيثة محصلتها فى النهاية ، إذا صح التحليل ، ستكون واحدة من أعظم الخطوات الوطنية فى تاريخنا الحديث ، فإذا كان السادات والقادة العرب الآخرون قد رأوا أن قرارات مجلس الأمن لم تفلح فى ثنى إسرائيل عن خطها التوسعى الاستيطانى الرافض تماماً لأى حق عربى أو فلسطينى ، فإن الوسيلة الوحيدة الباقية أمام العرب هى الحرب مرة أخرى وعلى نسق ما حدث فى 73 من تعاون سورى مصرى مدعوماً من السعودية والعراق والجزائر وليبيا ومتجنبة كل أخطاء حرب 73 بحيث لا تحدث هذه المرة ثغرة أو تتوقف الحرب عند خط هو المثالى لإعطاء إسرائيل الفرصة لرد الضربة الأولى ، ليس فقط باسترداد ما فقدته من أرض (أرضنا) وإنما باجتياح مناطق شاسعة أخرى جديدة .

وسألت صحفياً من عُمَد مؤيدى السادات ، عشية عودتهم من القدس ، عما دار خلف الستار هناك ، وبهرت فعلاً وهو يؤكد لى أن كل شئ قد تم وفق ما نريد تماماً ، وأن ما تحقق من اتفاقات تعدى كل ما كنا نحلم به من نهاية منتصرة لصراعنا المرير مع إسرائيل ، وعلى رأسه عودة فلسطين الدولة والعلم والاعتراف .

وهكذا ، مثل كثيرين غيرى ، كتبت أؤيد المبادرة فى مقال قصير نشرته بالأهرام . ولكنى بحذر شديد فعلت حتى أحفظ لنفسى خط الرجعة ، فشئ ما كان يوسوس إلىَّ أن الإسرائيليين ، بالذات بيجن ، لا يمكن أن يكونوا بمثل ذلك الحسن للنية ، وأن هكذا ببساطة يسلمون كل ما فى أيديهم من أوراق ، ولكنى أعود وأرد على الوساوس وأقول لنفسى : إنه الأثر المباغت للمبادرة ، ذلك الذى ، على مستوى الشعب الإسرائيلى ، قد حظى بقبول وحماس جعل الشعب هناك ، ذلك الذى يموت شبابه ، وتدفع أمهاته ضريبة سياسات حكوماته المتتالية التوسعية ، حماس الشعب هناك للسلام ، فرض إرادة السلام ، وأرغم بيجن على التخلى عن طبيعته ذاتها وليس فقط عن أحلامه وطموحاته .

لماذا كفرت بها ؟

ورغم أن إيمانى بالمبادرة لم يستغرق إلا شهراً واحداً ، ذلك الذى مضى بين المبادرة وبين اجتماعات ميناهاوس المشهورة التى ، ويا للعجب ، دعيت لحضورها منظمة التحرير كممثل وحيد شرعى للشعب الفلسطينى ، معترف به من قبل إسرائيل وأمريكا بحكم قبولها توجيه الدعوة لها والجلوس مع وفدها الرسمى على مائدة مفاوضات واحدة ، ودعيت إليها سوريا ، ولا أذكر إن كانت الأردن قد وجهت إليها الدعوة هى الأخرى .

شهر واحد فقط أو أكثر قليلاً بين تصوراتى المتفائلة تماماً للمبادرة ونتيجتها وبين خطبة ((بن أليسار)) مدير مكتب بيجن ، خطبته الافتتاحية التى كشفت ، ومنذ كلماته الأولى ، وكما يغمر الضوء الباهر ليلاً بأكمله من الظلام ، تلك الكلمات التى ذكر فيها أنه سعيد جداً بالحضور إلى القاهرة باعتبار أنها حققت له شخصياً أمنية (وهى رؤية الأهرام التى كان دارجاً فى أحاديث بيجن وتصريحات كثير من كتلة ليكود والأحزاب الدينية الأخرى ، كان دارجاً قولهم إن أجدادهم اليهود هم الذين بنوها ، ولذلك فهى تعتبر أثراً للحضارة اليهودية القديمة يجب أن يزار) حققت له هدفاً شخصياً ، وحققت للشعب الإسرائيلى حلماً باعتبار أننا جيران ((أى مصر وإسرائيل أو اليهود)) لأكثر من ثلاثة آلاف عام .

لم أسمع بقية خطابه ، فقد توقفت عن السمع ، بل وعن رؤيا ما تنقله كاميرات التليفزيون التى كنت أتابع الاجتماع من خلالها .

توقفت حواسى كلها كأننى أصبت بضربة مباغتة على أم رأسى .

فقد اكتشفت أن مبادرة القدس ، وهذا الاجتماع المعقود بجوار الأهرام ، وأن ما سوف ينتج عنه ويتلوه ليست مبادرات مصرية فى اتجاه الحق العربى أو حتى المصرى ، وإنما هى فى الحقيقة مبادرات لمصلحة إسرائيل وحدها ، هى مبادرات إسرائيلية بدأت بها إسرائيل ، وليس السادات ، عصراً جديداً فى صراعها مع العرب ، ألا وهو عصر التوغل واللعب داخل المعسكر العربى ذاته .

وكان الاكتشاف من البشاعة بحيث إنى وجدت أن حماسى للمبادرة ـ أنا الذى وهبت زهرة شبابى أعادى الصهيونية التوسعية الإسرائيلية ـ يدل على خطورة العقول التى دبرتها ونفذتها ، يدل على أننا استهنا كثيراً بتفكير أعدائنا وأننا كمجموعة

أطفال يحاربون أناساً جاءوا إلى الأرض ـ كما تقول أفلام الخرافات العلمية ـ من عوالم فلكية متقدمة .

وحين بدأت أعود إلى حواسى أو تعود إلىَّ حواسى وجدت أن المسائل أعمق وأخطر بكثير من صيحة حماس هنا أو مقال تحذير هناك . المسائل فى حاجة لوقفة طويلة أمام الــ Master mind أو ((العقل السيد)) الذى يحاربنا ويلعب بنا ، فى حاجة لعودة ثانية لكل ما دار فى المنطقة منذ الصدام الأردنى الفلسطينى الرهيب فى سبتمبر 70 وموت عبد الناصر المفاجئ ، وتعيين السادات بالذات نائباً وحيداً له قبيل موته بقليل ..

ثم انقلاب 15 مايو والسهولة التى تم بها .

والتحالف مع ليبيا والسودان بل وتدخل مصر عسكرياً لإحباط الانقلاب الذى حدث ضد نميرى .

ثم طرد الخبراء السوفييت وأنت يا أيها العبقرى مقبل على حرب مع إسرائيل .

وتلك الحرب نفسها حرب 73 .

ثغرة الدفرسوار

لقد زرت من عامين المكان الذى عبر منه الجيش الشارونى الإسرائيلى القناة من شرقها إلى غربها ليصنع ما سماه السادات ((الثغرة التليفزيونية)) ، وهالنى الأمر تماماً ، فالقناة عند ذلك المكان الذى أقيم فيه جسر برى مسفلت فى 24 ساعة فقط ، ذلك المكان أوسع كثيراً من عرض النيل الذى أقيم عنده السد العالى ، ذلك السد الذى استغرقت إقامته سنوات ، كيف يتسنى لمجاميع قليلة من جيش متسلل محصور بين جيشنا الرهيب الثانى وجيشنا الثالث ، كيف يتسنى لتلك المجاميع أن تسد القناة ، الأعمق من نيل أسوان ، والأعرض من مكان السد العالى ، فى ظرف أيام معدودة ، إنها كذبة كبرى ، إنى أطلب وألح أن تتشكل لجنة عسكرية هندسية من الجيش المصرى لتقدر كم العمل اللازم لإقامة طريق برى مسفلت طوله كيلو متر على الأقل وبقاعدة لا يمكن أن تقل عن خمسين متراً وارتفاع لا يقل ابتداء من قاع القناة إلى مستوى الطريق المسفلت على ضفتها ، ارتفاع لا يقل بأى حال عن عمق القناة زائد عشرة أمتار بأقل تقدير من سطح الماء إلى سطح الأرض ، أى حوالى ثلاثين متراً ارتفاعاً .

إنى متأكد أن أى طالب هندسة أو حتى أى مقاول صغير إذا رأى المكان ، وعرف أبعاده - لا يمكن إلا أن يؤكد أنه عمل لابد يستغرق شهوراً طويلة فى ظل وفرة من الأيدى العاملة وفى ظروف سلام تام مواتية ، أما أن يقول الإسرائيليون أو يقول بعض المختارين من المصريين إنه عمل قد تم خلال 48 ساعة على الأكثر فهذا هو الكذب بعينه أو بالأصح التمويه المراد به خداع شعبنا عن حقيقة لابد لمن يرى المكان أن يدركها عن يقين : حقيقة أن قناة السويس ، فى ذلك الجزء عند ((الدفرسوار)) ، كانت مسدودة فعلاً بكتل خرسانية ، وأنه عمل استغرق وقتاً طويلاً ليحدث ، وأنه تم إما بتكتيك عسكرى لا نعرف بالضبط كنهه بحيث أبعد أنظار جيشنا عن تلك البقعة بالذات ، أو كثف المدفعية فى تلك البقعة أثناء حرب الاستنزاف بحيث أصبح الاقتراب منها مستحيلاً ، وإما - وهذا هو الشئ المخيف فعلاً - أن يكون هذا السد قد أقيم بعلم السلطات المصرية[1] ، ولأن هذه مسألة مستحيلة

---

[1] واضح أن المقصود هو السلطات الساداتية وليس الجيش المصرى كما روج الغوغائيون وكما رد عليهم السيد / حافظ إسماعيل مستشار الأمن القومى أثناء حرب 73 وما يمكن أن يعتبر وثيقة ملحقة من الرجل العسكرى السياسى الأول فى نفس الفترة التى حدثت فيها الثغرة وواضح أيضاً أنه ليس فى إقامة الثغرة أى طعن فى بطولة الجيش المصرى وأدائه وشهدائه ، فها هنا مذكور بالنص أنها صنعت لكى تكون الخنجر الذى يصوب إلى ظهر الجيش المصرى المنتصر .. خنجر يطعن بطولته الرائعة وتضحياته الجسيمة ويمهد السبيل إلى احتلال إسرائيل لغرب القناة وانتشارها فى محافظة الشرقية ، والوصول إلى وادى حوف ومشارف القاهرة لكى

الحدوث بغير اتفاق مع الإسرائيليين ليسمحوا بإقامة سد قد يتخذ معبراً فى أى وقت للجيش المصرى ، وهو أمر مستحيل التصديق فإن المسألة تشكل لغزاً لابد أن يحل ، فقط لم يتنبه له الرأى العام إلى الآن ، ولكن لا حقيقة هناك مختفية إلى الأبد ، ولابد لشعبنا يوماً أن يعرف كيف أن سداً كهذا قد أقيم ليكون الخنجر الذى يسدد إلى ظهر جيشه فى اللحظة المناسبة ، خنجر خفى كان باقياً ، لكى يصبح سداً كاملاً وطريقاً ((مسفلتاً)) ، بعد وضع الطبقة الأخيرة فقط من كتل الخرسانة وهو عمل فعلاً من الممكن إنجازه بكم هائل من الآليات والأوناش فى ظرف 48 ساعة . وهنا أيضاً لا يملك أى إنسان لديه أى ذرة من القدرة على التفكير ، لا يملك إلا أن يتساءل كيف استطاع شارون بقواته الصغيرة أن يستجلب ـ لابد من إسرائيل نفسها ـ هذا الكم من الأوناش واللوريات والمعدات الآلية ، يستجلبها من إسرائيل

يصبح التفاوض فى الخيمة ((101)) مبرراً للشعب المصرى ، وما يقدمه الجانب المصرى من تنازلات فى مقابل ((جلاء)) الجيش الإسرائيلى عن الأرض المصرية مسألة معقولة .

إن الثغرة هى التى أجهضت انتصار حرب 73 المقدسة ، وصانع الثغرة ليس هو الجيش بطبيعة الحال ولكنها القيادة السياسية للحرب ، أى السادات ومعاونيه ، هم الذين كما قال هيكل فى رده على حافظ إسماعيل ، خذلوا السلاح ، وخذلوا الرجال ، وخذلوا البطولة والشهداء .

أما أن تكون الحسابات التى أوردتها هنا لحجم العمل فى الثغرة والوقت الذى أقيمت فيه ، ليست هى بالضبط التواريخ أو مكعبات الأمتار المضبوطة فلا يمكن للتجاوز فى بضع أمتار أو ساعات أن يقلل من حجم العمل الضخم الذى تم فى وقت قصير لا يمكن أن يصدق .

بل إن السيد حافظ إسماعيل قد ذكر أن حدوث الثغرة كان مسألة معروفة سلفاً لقواد الجيش المصرى وأن اللواء 25 مدرع قد درب على إبادة أى رأس جسر يضعه الإسرائيليون تمهيداً لعبور القناة من الشرق إلى الغرب ، وأن هذا اللواء المدرع نفسه قد أدى مناورات وصلت إلى أن تكون بالذخيرة الحية ودربت تماماً على عملية تصفية أى جسر للثغرة ، ولكن التآمر واضح فى أن هذه الفرقة نفسها ، المفروض أن تدافع عن الجانب الغربى للقناة ، والمفروض أن تشكل الاحتياطى الاستراتيجى للدفاع عن الأرض المصرية الأم نفسها فى حالة وقوع هجوم مضاد ، قد أمرها السادات بالعبور شرقاً ، وحين بدأ الإسرائيليون فى عمل رأس جسر طلب الفريق الشاذلى من السادات إعادة الفرقة لتؤدى واجبها المقدس فى إبادة الثغرة ، ولكن السادات اعتذر بأنه يريد معاونة سوريا ، ورفض عودة الفرقة ، فكانت النتيجة أن الدبابات الأربع أو الست الأولى التى عبرت أصبحت بعد 48 ساعة فقط أربعمائة دبابة ، وأيضاً دون أن يوافق السادات على عودة الفرقة للتصدى للهجمة على الأرض المصرية الأم ، وكانت النتيجة ما هو معروف من انتشار الثغرة ((التليفزيونية من فضلك)) ، جنوباً حتى مدينة السويس وحصار الجيش الثالث تماماً وشله ومنع المؤن والذخيرة والماء عن أخطر جيوش مصر وحصاره فى سيناء بينما كاد العدو يحتل منطقة القناة بأسرها ، لولا إيقاف القتال.

والمسألة لا تزال محل تساؤل كبير ، وهأنذا فى المقالات ((البحث عن السادات)) أطالب جيشنا المصرى البطل بتكوين لجنة تقصى حقائق منه حول الثغرة وكيف حدثت وكم العمل اللازم لإقامتها وكيف أقيمت وكيف تمت ونجحت ؟

ويصنع بها السد فى أقل من 24 ساعة من قراره أن ((يعبر)) القناة ؟ وفى ظل حرب طاحنة .

أما إذا لم يكن قد استجلبها ، وأنها كانت طوال الوقت هناك ، فإن هذه تكون قمة المأساة المضحكة ، إذ معناها أن شارون ، أو الجيش الإسرائيلى ، كان يعرف أن حرب 73 كانت ستقوم ، وأن الجيشين المصريين الثانى والثالث سيعبران القناة بنجاح ، وأن الرد على هذا العبور يكون من خلال هذا السد !!

لقد أطلت فى تأملى لحكاية الثغرة ، أو بالأدق لحكاية عمل الجسر البرى عبر القناة لأننى لست عسكرياً من ناحية ، ومن ناحية أخرى لأن أى زائر للمكان ، وأى عابر سبيل ، وأى صبى فى مدرسة ثانوية يرى منطقة الدفرسوار ويتصور إقامة سد عليها طوله كيلو متر فى ظرف 48 ساعة لن يتمالك نفسه وسيقسم بأغلظ الأيمان إن هذا مستحيل تماماً ، وإن ثمة مؤامرة كبرى ـ مؤامرة ضد الجيش وانتصاره تمهيداً لفرض الاستسلام عليه ـ وراء سد الدفرسوار إن كنا لا نعرف عنها الكثير اليوم ، فسنعرف وحتماً ، كل شئ غداً .

أقول أطلت ، لأن سد الدفرسوار يشكل بالنسبة لعلامات الاستفهام التى طرحتها متسائلاً أو مراجعاً للأحداث التى دارت فى منطقتنا منذ سبتمبر 1970 إلى الآن ، يشكل دليلاً من الممكن أن تراه ((أى العين)) دليل إثبات واضح لا يمكن دحضه ، يشكل شيئاً كجسد الجريمة فى لغة القانون ، وهو هناك قائم وموجود وباستطاعتك أنت نفسك ، لو شئت ، أن تراه ، وأن تبنى حكمك دون أى حاجة لإعمال ذكاء كثير .

هل هى مجرد مصادفات ؟

أعود إلى مراجعة ما حدث منذ وفاة عبد الناصر المفاجئة فى سبتمبر 1970 بعد اختياره ، وبلا مقدمات أيضاً ، بل بعد غضبة على السادات شديدة الوطأة جعلته يعتكف فى بيته ويقول إنه أصيب بنوبة قلبية ، بعد اختياره نائباً أوحد لرئيس الجمهورية[2] ، وانقلاب 15 مايو الذى أطاح بكل ما تبقى من رجال عبد الناصر وسياسته ، ودخول مصر فى طور جديد ولأن الشعب كان قد انتهى بمظاهرات وأحداث 72 إلى أنه من المستحيل إقامة أى سلام مع إسرائيل إلا بعد حرب معها تعيد له ، حتى ولو لم تعد الأرض ، تعيد له على الأقل ، وبالتالى للعرب أجمعين ، احترامهم لأنفسهم وبهذا تتيح لخطة من يريد إخضاع المنطقة بأسرها للسياسة الأمريكو ـ إسرائيلية ، أن تمضى قدماً ، وكأنها تطبيقاً لتكتيك لينين خطوة إلى الخلف لتقفز خطوتين إلى الأمام .

ولكن حرب 73 أدت ، ليس إلى خطوتين فقط ، وإنما لمكاسب لإسرائيل والولايات المتحدة لم يكن أشد المتفائلين يحلم بها .

وخطوة خطوة مضت الخطة الجهنمية تحقق النجاح تلو النجاح .

وهنا يقفز سؤال هام ، أهم سؤال فى الحقيقة .

أهى محض مصادفة أن يلى قيادة مصر شخص كالسادات ، مصر التى كانت تقود الكفاح العربى فى ذلك الوقت ، بمعنى أن يكون قائد المعسكر العربى كله رجلاً أفصح ما يقوله تعليقاً على أى شئ : صح . رجل خارج قدرته على الغدر لا يوجد لديه بارقة ذكاء أو لماحية واحدة ، رجل بدأ تاريخه ((الوطنى)) بالتجسس لحساب الألمان ، وانضم لمجموعة إرهابية خرج من قضيته معهم كالشعرة من العجين ، وما كاد يُفصل من الجيش ويعانى بعض الشئ حتى هرع يسلم نفسه ليوسف رشاد يعمل معه فى الحرس الحديدى الذى أنشأه ذلك الطبيب الملكى الهمام ليحارب الضباط الوطنيين ويغتالهم لحساب الملك ، ومن الغريب أيضاً أنى شهدت ـ وأنا أعمل طبيب امتياز عقب تخرجى من كلية طب قصر العينى ـ طرفاً من تاريخ الحرس الحديدى حين أطلق أناس من ذلك الحرس النار على الضابط عبد القادر طه

---

[2] الظروف التى أحاطت باختيار السادات نائباً أوحد لرئيس الجمهورية لا تزال منطقة مظلمة فى تاريخ مصر لم يتطوع بإجلائها من عاصروا الفترة ومدى تدخل المرحوم الملك فيصل والاستخبارات الأمريكية فى هذا التعيين ، فليتكلم الساكتون عن الحق ، الشياطين الخرس.

(شقيق نائب مجلس الشعب السابق والمعروف باتجاهاته الوطنية التقدمية أحمد طه) شهدت وكنت الشاهد الوحيد فى القضية ، وبناء على شهادتى وحدها ، إذ كان عبد القادر طه قبيل موته الذى نتج عن خمس رصاصات أطلقت عليه من الخلف ومن الأمام واخترقت جميعها صدره ، ولولا قوته الجسمانية الخارقة لمات فى الحال ، لحسن الحظ أحضروه إلى قصر العينى وهو فى بداية حالة الصدمة وحاولنا ما استطعنا أن نعالجه ليتغلب على الصدمة وتجرى له جراحة كبرى نستخرج فيها الرصاصات الباقية ، ولكن لم يكن هناك ثمة أمل على الإطلاق ، ومات عبد القادر طه ، وحين أدركت أنه قاب قوسين أو أدنى ، طلبت منه أن يذكر أسماء من اغتالوه ، إذ كنت قد أدركت أنه لا يريد أن يتهم أحداً وكأنه خائف تماماً من غرمائه ، وحين عرف منى أن الأمل فى حياته يتلاشى ذكر لى صراحة اسم شخص (على حسنين) هو الذى اصطحبه إلى كمين فى المنيل ، وذكر أيضاً اسم أنور السادات وحاولت أن أستفسر أكثر ولكن المنية لم تمهله .

رجل أصبح واضحاً الآن أن مجلس قيادة الثورة كان يعارض انضمامه للضباط الأحرار لأن الجيش كله يعرف أنه من رجال يوسف رشاد وأن عبد الناصر ضمه فى اعتقادى ليكون عيناً له على تحركات الحرس الحديدى ويوسف رشاد ، ولهذا اختاره عبد الناصر ليذيع البيان الأول للثورة حتى ((يخدر)) الملك والحاشية ويجعلهم يعتقدون أن رجلهم هو الذى يذيع البيان وأنها لهذا لابد أن تكون ثورة موالين ، أو على حد تعبير حيدر باشا قائد الجيش ((زوبعة فى فنجان)).

رجل كهذا وأكثر بكثير من هذا ، فليس هنا مجال استعراض تاريخه كله وليرجع من يشاء إلى مرافعة الأستاذ عبد الحليم رمضان محامى خالد الإسلامبولى ، ففيها أشياء فى حياة السادات الشخصية تشيب لهولها الولدان .

ولكن الذى يهمنا هنا هو أن السادات ، أو شخصاً كالسادات هو الذى كان على رأس المعسكر العربى عشية حرب أكتوبر .

والسؤال الذى أعاوده مرة أخرى : أهى صدفة محضة أن يكون فى هذا الموقع الخطير شخص كالسادات ، وفى مقابله من ؟ كيسنجر من ناحية وبيجن والمتطرفين والليكود من ناحية أخرى ؟

الغباء أمام عبقرية التعصب

أصدفة أن يتزامن مجئ السادات مع مجئ كيسنجر مع مجئ بيجن بحيث تتم المهزلة الكبرى ؟

الغباء الأكبر فى مواجهة الذكاء الأعظم والتعصب العنصرى الأعمى مجتمعين أو لتكون المعادلة دقيقة نضعها هكذا :

إنسان متعاون متفق لحد التفريط بلا أى مقابل (راجعوا ما قاله كيسنجر عن طرد الخبراء السوفييت الذى كانت الولايات المتحدة مستعدة أن تدفع ثمنه جلاءً كاملاً غير مشروط عن سيناء على أقل القليل) . إنسان كهذا فى مقابل أعظم عقلية اكتشفتها الرأسمالية الأمريكية لتنقل أمريكا من مرحلة الدولة العظمى القوية إلى مرحلة الدولة الأعظم الوحيدة المهيمنة على العالم كله المحاصرة للكتلة الاشتراكية تماماً تمهيداً للانقضاض عليها أو اختراقها ، وبهذا يصبح العالم كله فى قبضة أمريكا .

أما أن يلحق بيجن بعقلية كهذه فهذا أيضاً ليس مصادفة أو عدم ثقة فى كفاءة كيسنجر ، إنما ربط تام بين الذكاء والولاء ، بين اليهودى الأمريكى العبقرى فى هندساته الاستراتيجية والتكتيكية وبين اليهودى الإسرائيلى المجنون إلى حد الهوس بالتوراتية والعنصرية اليهودية أى الإيمان المطلق الذى لا يمكن أن ينكص أو يتغير ، فذكاء كذاك لابد له ليصبح ذا فاعلية من تعصب شرير يشكل نقطة انطلاقه ويحكم توجيهه وهو فى النهاية تحقيق نهائى للحلم الذى داعب الصهيونية كثيراً وطويلاً : حكم العالم عن طريق التحكم فى أقوى دولة يستطيعون بها أن يحكموا العالم ، هكذا حاولوا مع إنجلترا حين كانت القوة المهيمنة ، ثم مع ألمانيا حين تصوروا أنها ستخلفها ولكن حين هزمت وقام هتلر لينسب الهزيمة لهم وينقض عليهم أدركوا أن القوة العظمى القادمة ستكون إما روسيا الشيوعية أو أمريكا الرأسمالية وإلى الدولتين تسللوا وأصبح اليهود فى العالم أكبر دعاة الشيوعية من ناحية وأعتى أصحاب البنوك والمسيطرين على الفن والفكر والكتاب ووسائل الإعلام فى المعسكر الرأسمالى كله من ناحية أخرى . وحين تكشفت النوايا تماماً وبدأ المعسكر الشرقى ينحاز إلى العرب ، أصبح الطريق الأوحد هو السيطرة التامة على أمريكا وتقويتها إلى درجة تستطيع معها أن تقهر العالم الثالث كله والعرب ومعسكر عدم الانحياز ثم التهام المعسكر الاشتراكى نفسه أخيراً.

الدين الجديد

ولقد كتبت أكثر من مرة أن الدين الأمريكى الجديد أو المسيحية اليهودية أو اليهودية المسيحية ويسمونها Judo-Christianity ، هو النخاع الشوكى الفكرى لأمريكا الرأسمالية مثلما كانت البروتستنتية أو الكاثوليكية هى النخاع الشوكى العقائدى للإمبراطورية البريطانية أو للإمبراطورية الفاتيكانية فى الزمن الوسيط ، كل إمبراطورية لابد أن يكون لها نواة عقائدية ما ، ولقد نجح اليهود والمهاجرون لأمريكا ، وحتى الباقون فى إنجلترا وفرنسا وأوروبا أن يظلوا يمطرون البروتستنتية بالذات بوابل من النقد المغرض الهادف لخلق إحساس بالذنب قِبل اليهود ، إحساس رهيب بالذنب من المسيحيين كلهم ، إلى حد إجبار البابا الكاثوليكى إلى إصدار تكذيب لما جاء فى الإنجيل عن أن اليهود هم الذين صلبوا المسيح ، ولو أن هذا ليس موضوعنا الأساسى إلا أن المتتبع للأسلوب الفريد الرهيب الذى استطاع به اليهود ، وبطريقة غير ملموسة تماماً إدخال اليهودية كجزء من العقيدة المسيحية أولاً ثم الدفع فى هذا الاتجاه إلى حد الإيمان بأنهما ليستا عقيدتين منفصلتين وإنما هما عقيدة واحدة متصلة ، بحيث بدلاً من كلمة التوراة وكلمة الإنجيل أصبحا كتاباً واحداً التوراة فيه هى العهد القديم والإنجيل فيه هو العهد الجديد .

فى تلك المرحلة التى وصلت فيها العقيدة اليهودية المسيحية قمتها الموحدة وأصبحت تشكل عقل أمريكا وقلبها كان طبيعياً جداً أن يعين وزير الخارجية لأول مرة فى التاريخ الأمريكى يهودياً ، ليس هذا فقط بل يتجاوز عن شرط أن يكون مولوداً فى أمريكا أو من أبوين أمريكيين ، ويحدث هذا دون أى اعتراض علنى من رجال الكنيسة البروتستينية الأمريكية مع أن تلك الكنيسة كانت من التعصب بحيث تعتبر أن كل من ليس بروتستينياً أمريكياً هو مواطن من الدرجة الثانية ، وبالتالى أيضاً لم يعترض الكاثوليك الأمريكان باعتبار أن الكاثوليك أقلية فى أمريكا ، يعنى أمريكا كلها ، وافقت ، ورحبت بتعيين هذا المهاجر اليهودى الألمانى ليس فقط وزيراً لخارجية أمريكا ، أى فى المنصب المقابل لرئيس الوزراء فى الدول الأخرى ، بل ((يتصادف)) أيضاً ، وبالضبط بعد إتمام هذا التعيين أن تكتشف وتروج فضيحة ((ووتر جيت)) بحيث تشل فاعلية الرئيس الأمريكى نيكسون ويصبح كيسنجر وحده الرجل الحقيقى الأول فى الولايات المتحدة .

تسلسل الأحداث المتصادفات

ولنرقب الأحداث من جديد .

* بعد حرب أكتوبر تسقط جولدا مائير ويأتى بيجن .

* ويأتى بعد إتمام ترتيب البيت المصرى وإخلائه تماماً من الاتجاهات الناصرية وإعادته لرأسمالية ما قبل الثورة ، وإكساب السادات هالة مجد تتيح له شعبية واسعة بعد ((انتصاره)) فى حرب أكتوبر .

* شعبية لابد منها لتنفيذ الخطوات القادمة من المؤامرة الكبرى .

* وفى نفس الوقت تتوتر العلاقات بين أمريكا والاتحاد السوفييتى ، ويجئ مستشار الأمن القومى الجديد ليحقق ما يشبه المعجزة للشعب الأمريكى : ينهى حرب فيتنام من ناحية ومن ناحية أخرى يحقق ما يشبه الحلم ، ليس فقط بتوسيع بحر السم والدم الذى أصبح يفصل الصين عن روسيا ، بل ، يا لروعة هذا فى نظر الأمريكى العادى ، ((ضم)) الصين إلى المعسكر الأمريكى واحتوائها تماماً .

شعبية هائلة نالها ذلك الرجل بحيث أنست الأمريكان من هو . ومن يكون ، فالمهم أن الأسطورة بدأت ، وتكفلت آلة الإعلام الجهنمية الخاضعة تماماً ((للوبى)) اليهودى بتصوير كيسنجر وكأنه أينشتين السياسة ، فعلاً أوصلوه إلى مرتبة أينشتين الذى من شدة عبقريته لا يقف أحد طويلاً أمام كونه يهودياً ، وهكذا وجد كيسنجر وأوجدوا له البساط الأحمر المحاط بالقلوب وبأساطير العلاقات النسائية (التى تجعله موضع إعجاب الرجال والنساء على وجه خاص) ، أشياء من الممكن أن تجعل الإنسان يكتب كتاباً عن ((صناعة العباقرة)) مثلما كتب أحدهم كتاباً عن ((صناعة الرؤساء)) فى أمريكا .

* السادات أصبح شعبياً .

* وكيسنجر أصبح رئيس الوزراء شعبياً وعبقرياً جداً وقادراً على تحقيق المعجزات .

* وغير مهم أبداً أن تضفى على بيجن هالة العبقرية أو الشعبية .

فاليهود يستعملون هذه الأشياء لخداع الآخرين ، أما هم أنفسهم فيكفيهم ممن يرأسهم أن يعمل دائماً وأبداً بمبادئهم ويحقق أهدافهم ومصالحهم ولو بلغ بإيمانه هذا حد اتهامه بالتعصب والجنون ، فمن أناس يولدون التعصب ويرضعون التعصب ويضعون أنفسهم فوق كافة الجنس البشرى يصبح التعصب عند رئيسهم ميزة وتفرداً ، يصبح شيئاً مطلوباً ومرغوباً ومستحباً خاصة حين يبدأ يملى على الآخرين رغباته ((النابعة من رغبات شعبه)) المتعصبة للحق اليهودى ((المقدس)) ، ذلك التعصب ((الجميل)) الأعمى .

القدس هى العاصمة الموحدة المقدسة لإسرائيل ، فرمان يصدره الملك بيجن وبالقوة الساحرة الأكثر مفعولاً من كل قدرات سليمان وجنوده ، تصبح القدس هكذا وعلناً ، وأمام العالم كله .. ضم يا ولد الجولان ، تنضم الجولان .. اضرب المفاعل فى العراق واخرق ما شئت أجواء سوريا والأردن والسعودية - ينضرب المفاعل . هات السادات إلى القدس ، يجئ السادات ، اجعله هو الذى يركع ويطلب العفو والسلام .. يتم هذا ويتحقق ، فحتى لو لم يكونوا يهوداً أو متعصبين ، أهناك شعب فى الدنيا لا يؤيد ويتحمس ((لبطل)) مثله يحقق لهم كل يوم انتصاراً ؟!

وهكذا كان على منطقتنا العربية وقد أعد لها المسرح والأبطال الثلاثة : كيسنجر والسادات وبيجن ، أن تشهد فصلاً من تاريخها لو كتبه روائى أو مسرحى لما تم بهذا الإتقان ولتصور الناس أن المؤلف جامح الخيال مخبول .

ولأن هذه الدراسة ليس هدفها كشف وتمحيص المعسكر الآخر ، معسكر الأعداء ، وإنما الهدف الرئيسى منها أن نتفحص معسكرنا نحن وما جرى فيه والبطل فى تلك الرواية الهزلية المأساوية الكبرى : أنور السادات ، لأن هذا هو الهدف .. ولكن لأن هناك تداخلاً بين معسكرنا والمعسكر الآخر ، أو بالأصح سيبدو واضحاً أن هناك نقطة وربما نقاط التقاء ، فلابد من لمحة سريعة نستكشف بها الآخر ، لتعرف حجمه ، ووزنه ، وفاعليته ، ليس فقط فى قيادة جانبه وإنما ، وهذا هو الأهم ، فى التأثير على جانبنا نحن . والحق أن ((الأبطال)) كثيرون فى المعسكر الآخر ، ولكننا سنركز على قطبين منهم باعتبار أن كلاً منهم لا يمثل نوعه فقط ولكن يمثل ((مرحلة)) من مراحل تطور ذلك المعسكر الآخر ونموه .

ولنبدأ بالقطب الأول .. بيجن :

قلت ذات مرة فى ((مفكرتى)) إننى مع آلاف الأحداث الصغيرة والكبيرة ، بتوقف عندها مرات ومتأمل لكل منها على حدة ، ثم متأملها مجتمعة بدأت أستن لنفسى قانوناً ، ما طبقته بعد هذا إلا ووجدت أنه ينطبق بكل دقة ، ذلك القانون هو أن لا شئ فى منطقتنا يحدث صدفة أبداً . وإنما كل شئ يحدث بتدبير ، لا أقول بمؤامرة

فليس أسهل لدينا من استعمال تلك الكلمة ، مؤامرة ، ولا شئ أكثر منها تضليلاً ، ذلك أنها تدفعك للتصور أن أعداءنا يحاربوننا بالمؤامرات ، أى بتدبيرات منفصلة ، كل منها واقعة ، دبرت ، هذا صحيح ، ولكن لتحقق هدفاً واحداً ما ، ولكن أعداءنا للأسف ولسوء الحظ لا يحاربوننا ((بالقطعة)) ، بل هم لا يحاربوننا أبداً ، إنهم أحياناً يلعبون لعبة الحرب ونسميها مرة مؤامرة العدوان الثلاثى ، ومرة مؤامرة الانفصال ، ومرة مؤامرة هذا الانقلاب أو ذاك ، أما هم فالمسألة بالنسبة إليهم مسألة ((خطة)) ، تخطيط شديد البراعة له أهداف بعيدة المدى تتحقق عن طريق تحقيق أهداف قريبة المدى ، بل تصل بهم البراعة فى أحيان لأن ((ينهزموا)) أمامنا مرة أو يبدون أنهم ينهزمون ونحس نحن أننا انتصرنا ، ونبنى على ((انتصارنا)) هذا احتمالات وتحليلات واستنتاجات ، ويتركوننا هم نفعل هذا (إذ هو داخل فى اعتباراتهم وحساباتهم) فى حين ينصرفون هم لتحقيق بقية التخطيط .

مرة أخرى أعود فأقول أن لا شئ فى منطقتنا أبداً يحدث صدفة ، ومن لا يصدق هذا عليه فقط أن يضعه فى حسبانه ثم يعود بذاكرته إلى الأحداث ويتأملها ، ويتأمل حتى ، وعلى هدى ما فات ، الأحداث الجارية الآن ، ليتأكد أن افتراضنا مائة فى المائة صحيح . إننى متأكد الآن أن اجتياح لبنان مثلاً لم يتم التدبير له عقب معاهدة كامب ديفيد ، إن تدبيره تم قبل حرب 73 ، وقبل المبادرة ، بل إن المبادرة نفسها سيثبت التاريخ أنها لم تكن فكرة عبرت بخيال ((المرحوم)) والطائرة تحلق به فوق جبال تركيا ذات يوم من أيام عام 78 أثناء عودته من ألمانيا أو رومانيا لا أذكر ، لا شئ أبداً يحدث صدفة .

ومجئ بيجن أبداً لم يكن صدفة .

ومعذرة إذ أستدرك وأقول إن الخطة العظمى أو **Master plan** الموضوعة لمنطقتنا من قبل من سنسميهم الأعداء من هنا فصاعداً ليست خطة جامدة وغير قابلة للتعديل ، إنما العبقرية فى تلك الخطة أنها مطاطة تماماً وأن الواضح فيها غير المتغير هو أهدافها فقط ، أما التكتيك فإنه يوضع مستغلاً كل خطأ فى ردود أفعالنا ، بل وحتى كل خطأ فى معسكرهم .

وحين كانت الأنظمة العربية ، وعلى رأسها ((النظام الناصرى)) تبدو فى عين العالم وحتى فى عين العرب أنظمة ديكتاتورية ، كان على إسرائيل أن تبدو تماماً على النقيض من تلك الأنظمة ، فتجعل حزب العمال (الليبرالى قليلاً ـ الاشتراكى الديمقراطى) هو الحاكم ، ليرى الدنيا والعرب الفارق الحضارى والسياسى بين العرب (الطغاة) ، وبين الإسرائيليين ((الديمقراطيين)) وبالطبع كان هذا الفارق فارقاً ظاهرياً تماماً ، مثل وضع موشى ديان هاوى الآثار المثقف العالم الذى يتكلم العربية أمام عبد الحكيم عامر القادم مسطولاً من ((أسطال)) الذى لا يبدو أنه قرأ فى حياته كتاباً . ولكن المجتمع العسكرى العنصرى المهووس كان هو نفسه لم

يتغير ، لا أيام حكم حزب العمال الإسرائيلى ، ولا أيام حرب 73 ، ولا حتى حين ((بدا)) أنه خسر الحرب فى أولها .

ولكن ..

حتى وإسرائيل قد خرجت من الحرب باتفاقيتى فض الاشتباك ، وبانتصار أكبر هو اكتشاف السادات أو بالأصح الكشف الكيسنجرى عن هويته . حتى وإسرائيل قد خرجت بهذا الانتصار الضخم ، فلم ينس واضعو ومنفذو الخطة العظمى أن حكم حزب العمل الطويل بديمقراطيته الظاهرة قد بدأ يغير قليلاً من طبيعة هذا المجتمع الذى لابد ـ للوصول إلى الأهداف الثابتة ـ أن يبقى المجتمع المستفز المقاتل الملتف حول طبيعته العنصرية .

وهكذا من ناحية إسرائيل ، كان لابد من مجئ كتلة الليكود بقيادة بيجن بالضبط على النسق الذى جاء به هتلر ليحل محل النظام القيصرى عقب هزيمة ألمانيا فى الحرب الأولى ، قائداً متعصباً جديداً بحزب نازى مهووس بمركب السمو والتفوق الجرمانى ، ليحقق ما عجز عن تحقيقه النظام البرلمانى القيصرى .

وأيضاً من ناحية العرب ، فقد وضح أن أنظمتهم ـ بعد موت عبد الناصر ـ قد بدأت تميل إلى أن تفك قبضاتها قليلاً عن شعوبها ، وتدخل نوعاً من ((الديمقراطية!)) لتكتسب لدى شعوبها شرعية كان يكتسبها نظام فردى كنظام عبد الناصر بمواقفه الوطنية المثالية .

وهكذا فى مقابل الأنظمة الديكتاتورية لدينا كانوا يواجهوننا بنظام اشتراكى ديمقراطى ، فلما بدأنا ننادى بالاشتراكية الديمقراطية (سماه السادات عصر الانفتاح) كان لابد أن يواجهونا بنظام متعصب يعتبر بكل المقاييس نظاماً ((فاشياً)) ، وإن بدأ فى الظاهر ((كنيستياً)) حافلاً بالمعارضة والحياة الحزبية .

جاء بيجن لينقل المجتمع الإسرائيلى خطوة أخرى ، المجتمع الذى استولى على أراض عربية شاسعة فى حرب 67 وكان يحتفظ بها احتفاظ اللص بما سرقه أو اختلسه ، ويحلم بتملكها ، ولكن كانت تنقصه شجاعة أفاك وقح ، شجاعة رجل مثل بيجن ، له من الصفاقة حد يستطيع أن يسمى به عدواناً صارخاً كالذى حدث فى 67 ((حرباً دفاعية مقدسة)) وبهذا المنطق يدعى ملكية أى أرض تؤمن الوجود الإسرائيلى وتمنع عنها أى عدوان مباغت .

وهكذا جاء بيجن .

ولقد استوقفتنى أكثر من مرة تلك ((القصة)) التى كان يحلو للسادات دائماً أن يرددها ، قصة أنه ، حين استوت فكرة التفاوض مع إسرائيل ، ذهب إلى شاوشيسكو رئيس رومانيا خصيصاً ليسأله هذا السؤال : هل بيجن شخص شجاع من الممكن أن ينفذ وعوده ؟ وحين أجابه شاوشيسكو : بلى .. إنه رجل ملء وعوده ، هكذا وبمنتهى البساطة ، وفقط بهذا الرد الموجز ، آمن السادات على الفور بقدرة بيجن ، وقرر أن يمضى قدماً فى تنفيذ خطة المبادرة .

لفت نظرى كثرة تكرار السادات لهذه القصة ، مع أنها تبلغ فى سذاجتها درجة الإضحاك . أممكن أن يقرر رئيس دولة عاقل ، ولتكن دولة الماو ماو ، وقائد معسكر عربى هائل ، يقرر رئيس مثل هذا أن يصطلح مع دولة معادية ، وأى عداء ، عداء عنصرى رهيب ، وأن يجر بلاده ومعسكره إلى علاقة سلام بعد حرب ، وتطبيع بعد عداوة ، وصداقة بعد بحور من الدم ، أيمكن أن يفعل هذا كله ، فقط لمجرد أن السيد شاوشيسكو قال : نعم .. بيجن يفى بوعوده ؟

لفتت نظرى القصة وتكرارها والسخرية بها بينى وبين نفسى ، بل بينى وبين الآخرين ، ولكن كثرة ترددها جعلتنى أتأكد أن السادات يريد بها أن يغطى شيئاً ما ، ولم لا يكون الأمر العكس تماماً ، وهو أن السادات لم يبادر بالذهاب إلى القدس والتفاوض مع إسرائيل إلا بالذات لأن بيجن كان هناك ؟

بمعنى آخر : لم يفكر السادات بالذهاب إلى القدس أولاً ولم يبق عليه ليذهب إلا التأكد من صدق بيجن ، لم لا يكون الأمر العكس ، وأن تكون المبادرة كانت هناك أولاً (على الأقل فى عقول المخططين) وأن بيجن جاء ((ليحقق)) المبادرة ؟

أى أن الذى وقع أولاً هو المبادرة أو بالأصح التفكير الجدى فى تنفيذها ، وكان على إسرائيل حينذاك أن تختار جانبها المفاوض ، ((فنجح)) الليكود فى الانتخابات ، و ((جاء)) بيجن ، وبتواجد الطرف المناسب لم يعد أمام السادات إلا أن يطلق الطلقة الأولى و ((يبادر)) إلى القدس.

أقول هذا لأنى متأكد أن بيجن لم يأت أبداً صدفة ، وإنما جاء لأن هناك وضعاً كان يحتم تغيير الأحصنة الإسرائيلية ، وضعاً لابد فيه من ((صقور)) ، صقور لماذا والحرب انتهت ؟ صقور لأن حرباً ضروساً كانت توشك أن تبدأ وقد أعد لها المسرح ، حرب الدخول فى فندق التسليم والتسلم والمفاوضات ، وتلك فى حاجة إلى عقول عمياء بالتعصب والعناد ، ليست جولدا مائير أو أبا إيبان أو أشباههما هم الذين يمتلكونها .

لم يكن مجئ بيجن إذن صدفة .

وأيضاً لم يكن مجئ كيسنجر .

وفوق ما ذكرنا من أمر صناعة ((العبقرية)) ، وتلميع من يريدون تلميعه ، فلا ننسى أبداً أن أمريكا أو إذا شئنا الدقة ، الحضارة الأمريكية ((إن جاز هذا التعبير)) هى أول حضارة فى التاريخ ((تصنع)) الشخص العام سواء أكان نجماً أو نجمة فى هوليود أو ((عبقرياً)) من العباقرة .

أوروبا فعلاً لم تكن تصنع نجومها بالدعاية وبالأخبار وبالحكايات ، كان الممثل الأوروبى أو الراقصة تصنعه أو تصنعها موهبتها الفذة فقط . سارة برنار لم يكن وراءها جيش من محررى الأخبار الفنية والمقالات المدبجة بأجر ، والصور المنتقاة ، وقصص الغرام الملفقة ، كانت عبقرية مسرحية فذة ، بهذا وصلت مكانتها . فى العالم الجديد اكتشفوا أن باستطاعتهم - بدلاً من انتظار ظهور المواهب - صناعة المواهب ، يخرج الإنسان الأمريكى باكتئاب أصابه من الحرب فيخلقون له ريتا هيوارث وجلين فورد وفان جونسون ، يمل الكلاسيكية فيخلقون له جيمس دين ومارلون براندو ، يهفو إلى جنس من نوع آخر فيصنعون له مارلين مونرو ، وهكذا .

فن صناعة وتلميع وتقديم العبقرية هو واحد من أكثر الصناعات الأمريكية أمريكية ، وصح من قال وأشاع ((ده شغل أمريكانى)) نقولها ونحن نعنى بها نوعاً من ((البكش أو التهويش)) المتقن تماماً ، المتقن إلى حد لا يستطيع معه الإنسان العادى أن يفرق بينه وبين الحقيقى أبداً .

ولكن كيسنجر ليس رجل شارع ، ولا مجرد أستاذ جامعة ، كيسنجر مكتشف ومكتشف حقيقى وصاحب نظرية ثبت فى كثير من الأحيان بعد هذا نجاحها . إنه الرجل الذى كتب كتاباً تلقفه أصحاب النظام الأمريكى الرأسمالى الحقيقيون وكأنه هبة هبطت عليهم من السماء. ذلك أن بقية الإمبراطوريات ، بما فيها آخرها ، الإمبراطورية البريطانية ، كانت تمشى بمنطق أنها لا تصنع التاريخ ، إنها تريد أهدافاً ، وأنها تنتظر الفرصة ليحدث حدث من الأحداث ، وحينذاك فقط تتدخل الإمبراطورية وتلوى عنق الحدث ليصير فى صالحها أو لتستخدم نتائجه فى صالحها أو لتحقيق هدفها القصير المدى . أما هذا المكتشف ((كيسنجر)) فقد اكتشف أن انتظار أهداف التاريخ نوع من تضييع الوقت ، وأن التاريخ يمكن صناعته ، تماماً كما تصنع النجوم والعبقريات والرؤساء ، أو بالأصح بدلاً من انتظار الأهداف لتقع ونلوى عنقها أو نظفر بنتائجها ونسخرها لصالحنا ، نصنع نحن أو نصطنع الأحداث ونجنى ثمارها فى التو واللحظة ، تماماً مثل تصنيع اللؤلؤ فى اليابان ، بدلاً من انتظار المحارة لنظفر بها - المحارة التى تحتوى على اللؤلؤة الأصلية - تائهة بين آلاف المحار ، نصنع نحن المحار فى حوض من السلك ، وندخل - صناعياً - ذرة رمل داخل كل محارة ، وفى خلال أشهر قليلة نظفر من كل

محارة بلؤلؤة ، لؤلؤة حقيقية ، ولكنها من صنعنا نحن هذه المرة ، أو بالأدق من اصطناعنا ، لم ننتظر قانون الصدفة ليعمل عمله ، صنعنا أو صنعنا الصدفة . وبما أن التاريخ هو مجموعة أحداث ضخمة ، وبما أن الحدث الواحد الضخم هو مجموعة أحداث ، فبخلق الأحداث الصغرى ممكن أن نخلق الحدث الأكبر ، ونخلق مجموعة من كبريات الأحداث ، ممكن ، بل من المؤكد ، أن تحول مجرى التاريخ .

وبما أننا سنصنع الأحداث الصغرى وبالتالى الكبرى لتخدم مصالحنا ، ونخطط لها ونعمل حساب كل هفوة ، بحيث لا يمكن أن يفلت الزمام منا وتذهب ثمار الحدث لخصومنا فممكن إذن أن نحول مجرى التاريخ الآتى كله بحيث تعمل وقائع التاريخ القادم بإشارة منا ولمصلحتنا فقط .

جاء كيسنجر إذن فى وقت بلغت فيه الرأسمالية الأمريكية حداً من الجشع جعلها تعتمد اعتماداً كلياً على جهاز استخباراتها فى الاغتيال والمؤامرات وقلب أنظمة الحكم لصالحها ، جشع أصبحت معه لا تحتمل الصبر قِبل أى واقع ضدها ، وفى حاجة ماسة إلى أن ينقذها منقذ من حتمية التاريخ أو الحتمية التاريخية . فيا له من منقذ ذلك الذى اكتشف لها أنها من الممكن أن ((تصنع)) هى التاريخ ، بأقل قدر من الأيدى القذرة ، وبفاعلية أكثر ، وضمان أكيد للنتائج .

وما أعجب ما كان يمكن أن يقوله صاحب المادية التاريخية ((كارل ماركس)) عن المرحلة الكيسنجرية فى الرأسمالية ، غالباً كان يسميها مرحلة ((وصول الرأسمالية إلى الحد الذى بدأت تتدخل فيه فى التطور التاريخى الحتمى وتغير فى كروموسومات أجنة الحاضر والمستقبل بحيث تنشأ أوضاع تاريخية جديدة ، لم تعرفها البشرية من قبل ، لأن البشرية من قبل لم تفكر فى صنع التاريخ أو تحويل مجراه)) ولكن كارل ماركس أيضاً كعادته كان لابد أن يضيف : ((ولكن هذا التزوير التاريخى أو تحويل مجراه ، إنما بالضرورة ورغم أنه يعمل فى صالح الرأسمالية هو كالذى يعجل بنهايتها سواء بسواء فإن اختصار الزمن سيعجل بتكاثر المتناقضات وتراكمها بحيث يسرع أكثر فى عملية التغير النوعى من الرأسمالية إلى الاشتراكية)).

ولكن كيسنجر الذى جاء بنظرية إمكان صنع التاريخ ، التى كان أحد تطبيقاتها أنه لابد لأى مشكلة حتى تحل من ضرورة ((تسخينها)) ليسهل حلها . هكذا ((سخن)) الوضع فى فيتنام تماماً بالغارات الوحشية التى لم يعرف لها التاريخ مثيلاً على ميناء هايفونج وغابات فيتنام وكمبوديا لا ليحسم المفاوضات الدائرة فى باريس كما خيل للبعض وإنما ليصنع ما هو أدهى ، ليجعل الرأى العام الأمريكى ((يصرخ)) من وحشية ما يحدثه الجيش الأمريكى فى فيتنام ، بحيث حين يقرر الرئيس الأمريكى الجلاء عن فيتنام الجنوبية نفسها وإنهاء الحرب ، يتنفس الرأى العام تنفس المستريح الذى ((انتصر)) ، أين هذا من انسحاب ((بارد)) من فيتنام كان لابد

سيجعل الرأى العام ينقض بوحشية الشعوب حين تدرك أنها هزمت ، على من هزموها ، على كل مسئول عن الحرب والدخول فى الحرب وما حدث فى الحرب.
أما أن تنسحب أمريكا على هذا النحو ((الاختيارى)) وبعد صراخ من ((ضميرها)) العام ، فشئ مختلف تماماً . وهو أيضاً واضع استراتيجية وتكتيك حرب 73 لتسخين الموقف بين إسرائيل ومصر بالذات تمهيداً لصلح تام منفرد بين البلدين .. والكيسنجرية لا تزال سارية حتى بغير كيسنجر ، أو ربما به من وراء ستار ، فما حدث فى لبنان كله ليس سوى عملية تسخين إلى درجة الحريق العارم تمهيداً لأتعس حل للقضية الفلسطينية .

هذا هو كيسنجر .. أستاذ الجامعة ، الذى تلقف أصحاب أمريكا الحقيقيون نظريته تلقف الملهوف ، وتلقف ((اللوبى)) اليهودى أيضاً نظريته تلقف المسعور ، فالاستراتيجية التعصبية الصهيونية التى تسعى لحكم العالم من خلال حكم الدولة القوية الوحيدة التى تحكمه ، رحبت بكيسنجر ، لأنه سيمكن أمريكا من هذا أولاً ، وثانياً لأنه هو أيضاً جزء من ((اللوبى)) ، وسيكون بداية ليس فقط لأن يعمل اللوبى من وراء ستار ، ولكن أيضاً - وهذا هو المهم - أن يحكم علناً ، وعلى الملأ ، وبنفسه هذه المرة ، يحكم الدولة التى تحكم العالم .

وهكذا كان لابد من قصة محبوكة يصعد بها كيسنجر من أستاذ فى هارفارد إلى أعلى منصب فى أمريكا ، منصب الرئيس الفعلى ، بحيث حين يتقوض نيكسون يصبح كيسنجر هو فعلاً الحاكم ، سوء كان كيسنجر بذاته أو بنظريته .

وهذا هو بالضبط ما حدث .

وماذا عن جانبنا نحن ؟

ألقينا نظرة عاجلة على قطبى المعسكر الآخر .

أو بالأصح على إسرائيل فى مرحلة البيجينية ـ مرحلة تثبيت الاحتلال والاستيطان وابتلاع كل ما تقدر المعدة الإسرائيلية على ابتلاعه ـ بالأصح مرحلة التوسع الإسرائيلى وانتقالها من دولة إلى إمبراطورية .

وألقينا نظرة على كيسنجر أو بالأصح الولايات المتحدة فى المرحلة الكيسنجرية ، أعلى مراحل الرأسمالية بعد مرحلة الرأسمالية الاستعمارية ((التى وقف عندها التحليل المادى الجدلى الماركسى للتاريخ ، ولم يكن ليتصور حدوثها أبداً ، مرحلة انتقال أمريكا الرأسمالية من عصر الاستفادة من وقائع التاريخ إلى عصر صنع وقائع التاريخ لتلوى عنقه تماماً للسيطرة على العالم جغرافياً ، وتاريخياً أيضاً)).

إن مسألة التحالف بين الكيسنجرية والبيجينية ، أصبحت قضية صبيانية فى رأيى ، وهذا الحديث الكثير عن أوجه التناقض بين أمريكا وإسرائيل وأوجه الاتفاق ، والضغط الأمريكى على إسرائيل ، والضغط الإسرائيلى اليهودى على أمريكا ، كل هذا أصبح فى رأيى عبثاً .

فلا تحالف ، ولا تناقض .

إن المسألة تخطيط عميق هائل لأن تحكم الصهيونية أقوى دولة فى العالم تحكم بواسطتها العالم .

فاللوبى هو الذى يحكم أمريكا وكيسنجر ليس إلا جزءاً من ذلك اللوبى الذى اكتشفه وضخمه وصنعه واتخذ منه ((ميكيافيللى)) أمريكا ، بأحدث ما وصل إليه العقل البشرى من تكنيك صناعة التاريخ .

كل ما فى الأمر أنه ما دام العرب والعالم يريدون لعبة يتسلون بها ، فلنقدم لهم تلك اللعبة ، لعبة المتناقضات والتناطحات القائمة بين هذه وتلك ، إنها تسلية لا تضر أبداً ، بل هى فى الحقيقة تنفع جداً ، فهى : لينحدر العرب ، ومعهم العالم الطيب كله ، عن الخطة الجهنمية الخرافية التى لو تكشفت لوقف شعر العرب والعالم رعباً لمرآها ، ولربما اندفع هذا أو ذاك فى أعمال ((شريرة)) غير محسوبة ، فلينحدر

العرب ، ولتنحدر الدنيا ، وليتفرجوا على مسرح فيه بيجن الشرير وشارون الجزار وكاهان الصادق الطيب ، ونافون المعقول ، وريجان ذى الشعر المصفوف بعناية الممثل بالسليقة ليمثل دور الرئيس ((الغاضب)) من أعمال شارون وإيتان ، والصديق صاحب المبادرة المنقذ للعرب المعتدلين ، والمخوف للعرب المتمردين الرافضين ، وليكن للدب الأبيض دور المتفرج القابع - ما دام الأمر لا يهدد حدوده - يمز بأفغانستانه ونشرع فى وجهه كلما أراد أن يزوم شوكة بولندا أو زرع الصواريخ .

دعوهم يعتقدون .

ولنوزع الأدوار جيداً .

ولكن لأن هناك دوراً أساسياً ثالثاً كان لابد أن يقوم به عربى أو على الأقل شخص يرتدى الجلابية ويتكلم العربية ، فلنعهد به إلى ممثل ((عربى)) من الدرجة الثالثة ، نصنعه أيضاً ونلمعه ، ونضفى عليه آيات العبقرية بحيث نجعل استفتاء تقوم به مؤسستنا (على الطريقة الأمريكية فى البكش) يقول : لو رشح السادات نفسه رئيساً لأمريكا أمام كارتر لنجح باكتساح .

حسن جداً .

ولأن هدف هذه الدراسة ليس البحث فى المعسكر الآخر ، ولا استعراض آيات الصراع فى بقية أنحاء العالم ، حتى العالم الإسلامى ، لأن بحثنا الرئيسى هو الكشف عن حقيقة ممثلنا هذا ، المحور الثالث فى المسرح الذى - كما رأينا - أعد لكى يغير فى مجرى تاريخ العرب وينقلهم من المرحلة الثورية الوحدوية الناصرية الصارخة بالقومية العربية إلى المرحلة الساداتية التى تطفئ نيران الثورة على الاستعمار وتقول : يا أمريكا كونى برداً وسلاماً على شرقنا العربى ، ويا إسرائيل تبنا عن الحرب معك ، فاقبلى توبتنا !

لأن هذا هو موضوعنا فيستحسن أن ننتقل إليه فوراً .

وقد كان من الممكن أن أنحى كل الوقائع والأحداث ، وما كتب عن الموضوع جانباً ، وأورد مباشرة رأيى فيه .

وقد كان من الممكن أن أستعين بالمقتطفات وبالوقائع من مذكرات كارتر أو كيسنجر أو الشاذلى أو غيرهم .

ولكنى أختار شاهداً من أهلها لأتفحص شهادته وأورد أقواله .

شاهد من قلب المعسكر الساداتى نفسه ، الرجل الذى اختاره السادات من بين المصريين جميعاً ليخلف وزير خارجيته ((إسماعيل فهمى)) الذى استقال احتجاجاً ورفضاً لمبادرة القدس . ومعنى اختياره هذا أنه كان يثق تماماً أن وزير الخارجية الذى اختاره ((محمد إبراهيم كامل)) متفق معه تماماً ومتحمس جداً لمبادرته وللصلح مع إسرائيل ، ولكل السياسة الساداتية فى الداخل والخارج.

واختاره وعينه على معاهدة صلح تتم بعد لقاء لم يكن يعرف أحد أنه سيكون فى كامب ديفيد .

رجل إذن لا تشك فى ((ساداتيته)) .. بمعنى أنه ليس ((محايداً)) أو ((عدواً أو مختلفاً)) فى المبادئ مع السادات.

إنه - حين جاء - معه تماماً .

فلماذا يستقيل رجل كهذا وينفض يده من كامب ديفيد وكل ما حدث بعدها ؟

إن الإجابة على هذا السؤال الذى يبدو بسيطاً جداً ، هى المفتاح الذى سنحاول معه أن نفتح الباب الذى ظل مغلقاً طويلاً ، فبقينا نكيل الاتهامات للسادات ولكامب ديفيد من الخارج دون أن ندرى شيئاً أبداً عما دار فى الداخل :

وحتى حين نشر كارتر مذكراته ، ومن قبله كيسنجر .

لم نعرف أيضاً شيئاً كثيراً عما دار داخل الوفد المصرى وعن موقف السادات إلا من الخارج أيضاً وإن كان خارج الداخل ، داخل كامب ديفيد ، مذكرات محمد إبراهيم كامل إذن هى مذكرات شاهد من أهلها ، أهل كامب ديفيد .

وعليها وحدها ، ومنها ، سنستقى مادة الشهادة لهذه الدراسة .

***

ولكن قبل أن ندخل فى صميم المذكرات لنعرف الكثير جداً عن ثالثة الأثافى فى مثلثنا الرهيب (كيسنجر - بيجن - السادات) فإن هناك تساؤلاً لابد أن يساور أى مواطن شريف يقرأ هذه المذكرات : إذا كان الأمر بهذه الخطورة التى وضحت لعينى الرجل تمام الوضوح ، فلماذا لم يعقب استقالته بنشر هذه المذكرات فى حينها ، فهناك فارق كبير بين نشرها آنذاك وبين نشرها الآن . فى ذلك الوقت كانت

ستصبح ذات فائدة وفاعلية عظمى ، بل ربما كانت تغير من تداعى الحوادث أو ربما نجحت فى خلق رأى عام يوقف المؤامرة .

أن نخفى حقائق وجودنا الحاضر التى من الممكن أن تستخدم فى تغيير هذا الوجود أو أن نكتمها إشفاقاً على الآخرين أو على أنفسنا ونقولها بعد أن يكون وقت الاستفادة منها قد فات ، مسألة يرفضها الكثيرون ، ولكن نشرها ، حتى الآن ، لا يخلو من شجاعة ، فالحزب الساداتى لا يزال قائماً وموجوداً داخل مصر وفى وطننا العربى وفى أمريكا وإسرائيل ، وهناك أناس كان من الممكن أن يكونوا أكثر شجعة أو ربما متهورين فدائيين ويغامروا بنشر هذه المذكرات إبان حكم السادات أو حتى إبان مفاوضات معاهدتى السلام نفسها ولكن الرجل ليس متهوراً إلى هذه الدرجة ، وأيضاً ليس من الوجل بحيث يخاف أن يقول الحقيقة والحزب الساداتى الرهيب والحزب الواضع للخطة ((العقل السيد)) والإسرائيليون والأمريكان هم باقون شديدو التوحش والسعار .

وكان من الممكن العبور والمرور مرور الكرام على هذه التفصيلة ولكنى أقولها جرياً وراء أفكار ثورى رومانسى يحلم - لا يزال - بالبطولة والأبطال ، بينما نحن بإزاء حروب أصبحت كلها لا بطولة فيها إلا للشهيد الذى يسقط ، وبإزاء السياسة ، وقد أصبحت علماً عميقاً لا يبحر فيه إلا ذوو عقليات خارقة القدرة والذكاء ، ولم يعد الصراع السياسى أو العسكرى ساذجاً ، لقد أصبح يحتوى كل علوم الدنيا مجتمعة ، بما فيها علوم النفس وعلوم الاجتماع وعلوم اللغات والرموز وقوانين الذرة والإلكترون ، واشتعل الصراع على كافة المستويات ، ووضع فى حسابه كل التقديرات وعلى كل المستويات ، من الضعف الفردى إلى الضعف الشعبى وأدخل حتى أقصى اليسار فى لعبة اليمين وأقصى اليمين فى لعبة اليسار ، نحن فى الحقيقة بإزاء ظاهرة خارقة جديدة كان لا يمكن إلى عهد قريب جداً أن نؤمن ، مجرد نؤمن ، بإمكان حدوثها .

ولابد أن نراها الآن على عجل .

وبكل ما يملك المرعوب من يقظة .

وبكل ما يملك اليقظ من وعى وفطنة .

وإلا ضعنا .

فالمؤامرة ما زالت قائمة .

بل هى فى أعلى أطوارها .

ولبنان يوشك أن يبتلع .

وسوريا متهمة مدانة . دورها قادم .

والمقاومة فى عصر الشتات .

والأردن على وشك .

وسيناء رهينة .

والمؤامرة مرعبة .

ونحن لا نزال على تمام الجهل بأبعادها .

نحن بهم جهلاء تماماً .

وهم بنا يعتقدون أنهم العالمون تماماً .

ولكننا سننتصر . كيف ؟

لابد أن نتعلم أولاً كيف نتعرف ، وكيف نكتشف ، وكيف نشعل كل شموع ذكائنا ، ونعرف ولنمض نعرف ، لنعرف بالضبط ماذا وكيف حدث ما حدث ؟

الغوص فى حقبة السادات

لكى أستطيع الحكم على السادات من خلال مذكرات محمد إبراهيم كامل والوقائع التى أوردها كشاهد عيان أو شاهد ملك ((رئيس جمهورية هذه المرة)) عن المدة التى قضاها وزيراً لخارجية مصر فى أحرج فترة تحددت فيها سياسة جديدة تبعد بزاوية قدرها 180 درجة عن سياستها فى الأحقاب السابقة ، وحتى فى عصر ما قبل ورة يوليو أيام حكم السراى والأقليات والإنجليز ، كان علىَّ أولاً أن أحكم على المذكرات نفسها ، ولهذا كان علىَّ أن أنتظر حتى يفرغ نشرها تماماً ، ليس هذا فقط بل وجدت نفسى أتصرف بما يمليه ضمير أى قاض ، أو بالأصح بما يمليه ضمير أى إنسان ينشد إصدار أى حكم موضوعى عادل على أى إنسان أو حقبة . وأنا ممن يؤمنون كثيراً بأهمية أن أرى من يهمنى الحكم عليهم أو على أعمالهم وجهاً لوجه .

فالشكل البشرى والجسد البشرى نفسه والملامح ، والنواة العقلية العصبية المدفونة بعمق داخل الإنسان ، لا يستطيع هو نفسه فى معظم الأحيان أن يعبر عن كل ما تحتويه ، وتستطيع هى ، ودون وعى منه ، أن تصدر إشارات من تصرفات وإيحاءات وطريقة تأكيد كلمة أو رسم شخص ، أو فلتة لسان تومئ إلى ما يريد الإنسان أن يمنع لسانه من الخوض فيه ، أشياء كثيرة جداً ، علمتنى الحياة بعدها ، لكى أكون موضوعياً تماماً فى حكمى على إنسان ، أن أراه ، وأعتمد على إحساسى الذاتى المحض ، الذى تستجيب فيه نواتى الداخلية الدفينة لإشارات واعية أو غير واعية تصدر عن الإنسان الآخر ، وبإدراك واع وغير واع منى ، إدراك أطلقنا عليه - نحن العرب - كلمة ((الفراسة)) والفراسة موهبة يمتلكها كثيرون فى موطنى الأصلى بمحافظة الشرقية بمصر ، فالشراقوة يمتلكون طيبة وخبث الفلاح المصرى الفصيح القديم ، وأيضاً ولطول وكثرة ما احتكوا بالقبائل والمماليك العربية الشرقية ، بحضرها وتجارها وبدوها ، يمتلكون أيضاً نوعاً من الفراسة يتخصص بعضهم فيها و ((يقيسون الأثر)) ، أو يقيمون العدالة فى مجالس القضاء الشعبى والعربى ، أو يشتهر عنهم القدرة على فرز معادن وأنواع واستكشاف خواص الرجال .

وثلاثة أرباع أحكامى على الآخرين أصدرها من أول دقائق تعرفى بهم ، ولم أخطئ فى حكمى مرة واحدة ، ولا أقول هذا تفاخراً أرعن بالذات ، وإنما لأذكر المتشكك من القراء أن المعرفة ((الفراسية)) أو المعرفة ((بالأنتويشن)) أو بالإدراك الحدسى هى حقيقة علمية معترف بها وأحياناً يعتبرونها طريقة أكثر مباشرة وأكثر

دقة وصحة من المعرفة المبنية على التحليل أو التجميع أو الإدراك العقلى المحض غير المختلط بالإحساس الجوانى الذاتى المرهف .

وهكذا لم أكتفِ بقراءة المذكرات وإنما رحبت بالفكرة التى عرضها صديق مشترك والتقيت بوزير خارجيتنا السابق لأول مرة ، ورأيته رأى العين .

والحق أنى سعدت بمعرفته ، وسعدت أكثر أن الصورة التى كنت قد كونتها عنه لم تتغير أبداً حين عن عمد حاولت جهدى - وليغفر لى هذا - أن أستخلص أى زاوية أو كسر من زاوية تغير فى حكمى الغيبى عنه . حتى ما تصورته من وجود ذلك العامل الهام جداً فى عالمنا الثالث بل وفى كل العالم من رغبة أو هزة لمنصب الوزير تعمل عملها لدى أى عرض بالوزارة يتلقاه المواطن ، خاصة إذا كان هذا المواطن قد قضى عمره موظفاً فى نفس الوزارة التى يعرض عليه الآن وزارتها ، مسائل طبيعية بشرية ، بعض الناس يضع نفسه فوق مستوى البشر فى مصاف الملائكة ويجزم أنه لا يحسها ولا يوليها أى اهتمام ، ولكن مشكلتى أنى لست ذلك المتحزب السياسى وحيد النظرة ، بل لست حتى كاتباً سياسياً ، أنا كاتب درامى حين أكتب فى السياسة وعنها وعن رجالها ، أستخدم كل قدراتى الدرامية والفنية لأحاول تخيل كنه ما حدث بالضبط ، وأيضاً ، وهذا هو المهم ، أحاول ألا أجعل السياسيين مجرد قضايا ، ولكن أراهم ، كما هم ، بشراً ، وشخصيات ، ونقاط ضعف ، ونقاط اختراق ، ونقاط قوة أيضاً . بل أحياناً أعرف الكثير عن مبدأ السياسى أو طريقته ، من شخصية زوجته ورأيه فيها ورأيها فيه والعلاقة القائمة بينهما أو بينه وبين عائلته ، فالزوجة للسياسى أول اختياراته الشخصية الحاسمة ، وامتحان يحسب له أو عليه ، بل قد يقوده - كما حدث فى أحيان كثيرة - إلى حتفه .

وفى اللقاء ملأت - بالأسئلة الكثيرة ، وما تلقيته من إجابات - الفجوات المتعددة التى خلفتها قراءة مذكرات الرجل ، فلقد كتب المذكرات وكأنما يعيد على مسامع نفسه بصوت عال كل ما جرى وكان ، فى حين أن كل قارئ لابد أن يقرأ هذه المذكرات ليستكمل بها الجزء الناقص من صورة ما عشناه جميعاً بدءاً من مبادرة القدس 77 إلى توقيع معاهدتى كامب ديفيد ، ولأن هدفى الشخصى ، أو بالأحرى موضوعى كان هو بطل تلك الفترة (أنور السادات) فقد كنت أقرأ المذكرات وأتتبعها وهأنذا أتصدى للتعليق عليها رغم أن أحداً لم يطلب منى هذا التعليق ، ورغم أنه قد يخلق لى مشاكل لا أول لها ولا آخر ، وما فعلت هذا إلا لإحساس جاد بالواجب الذى أملى علىَّ أن أسمى آخر مجموعة من ((مفكرة يوسف إدريس)) صدرت فى كتاب باسم : شاهد عصره .

فالكاتب فى رأيى شاهد ، ليس شاهد ((ما شافش حاجة)) وإنما شاهد بحكم عمله وبالضرورة رأى كل شئ ، وجائز أنه رأى ولم يدرك ، أو أدرك معنى بعض ما رأى ، ولكن الكاتب بحكم وظيفته الحيوية الاجتماعية ، عمله أن يرى ويسمع وأحياناً

يقرأ ، ويعيش عصره ، وبلده ، وعائلته الصغيرة والكبيرة ، فإذا حدث هذا فإن عمله التالى المحتم أن يدلى بشهادته ، ليس بعد فوات العصر وإنما أيام العصر نفسه ، فهو شاهد عصره على عصره وأمام معاصريه ، فالكاتب الحق لا يكتب ليسجل موقفاً وإنما هو يكتب ليغير ، ليغير الناس ، وبالتالى ليغير العصر ، وإلا خرج عن دائرة الكتابة أصلاً ، أو أهمل دوره إهمالاً ، يصل أحياناً إلى حد الخيانة .

شاهد عصره ، لابد أن يكون الكاتب . شاء أم أبى . وأحد هواياتى كقارئ أن أتفرج على زملائى الكتاب والصحفيين وأرى كيف ومتى يدلون بشهاداتهم وأمام من ؟

ومن المضحك أن الكثيرين منهم أعتبرهم وبضمير مستريح شهود زور ، لأنهم فى الغالب يدلون بشهادتهم على عصر أمام عصر آخر يستعذب التهم المنسوبة لمن سبق ، بل وأعرف كاتباً على وجه التحديد لا عمل له إلا الإدلاء بشهادات مخالفة تماماً لدوره الحقيقى الذى عرفه الناس عنه ، وكان دائم الجهر به ، ويفعل هذا بحماس شديد وبنوع من الكذب المتحمس تماماً على الذات وعلى الناس وعلى التاريخ وحتى على أولئك الذين رأوه رأى العين داعية ومبشراً وقارع أجراس القداسة لعصر بأكمله ، أليس من المضحك أن تقرأ له بعد هذا بطولاته فى عداء ذلك العصر وملكه وانحيازه للشعب الكادح أيامها وقضيته ؟

مهزلة ..

شهادة الكاتب على العصر .. كم من الجرائد ترتكب فى حقك وباسمك أيتها الشهادة ، وإلى الآن ، وبلا أدنى خجل ، قليل من الخجل أيها الكذابون الكبار ، قليل من الخجل فعلى من تضحكون ، ومن تخدعون ، وأصابع الناس ، حتى الصبية الذين لم يشهدوا عصركم ((المجيد)) ذاك يشيرون عليكم بها من خلف ظهوركم ، سخرية ، سخرية من الذين يحاضرونهم صباح مساء عن الصدق ، وقدسية الكلمة ، وشجاعة قول الحق ، وهم ، هم أنفسهم يفوتون الجمل أمام الأعين من ثقب الإبرة ، والكذبة التى يعرف الجميع كذبها مهما يغطونها بالتهاويل والتحسينات والكساوى ، عارية ، مثلهم ، هكذا الكل يراها ، عارية ، مثلهم ، حتى من ورقة التوت .

المذكرات كثيراً ما تضلل

ولكن ..

ما علينا ..

إنها ظواهر من مستلزمات العصر الذى لابد أن نشهد عليه ، وما نوردها هنا إلا لنذكر القراء ، وأولهم قراء هذا الكلام ، أن كتابات الكتاب والصحفيين فى وطننا العربى ، وربما فى كل مكان ، بل حتى مذكرات الرؤساء والوزراء والمسئولين ، لابد ألا يأخذها أحد قضية مسلماً بها ، لابد أن يتفحصها بدقة ويعرف تاريخ قائلها وكاتبها ويعى بمواقفه وكم الصدق فى تصرفاته وتاريخه وكم الكذب ، وأنا شخصياً بدأت أعتقد أننى يجب أن أنظر إلى كل مذكرات خاصة تنشر على أنها نوع من الدفاع المسبق عن النفس أمام الحاضر والقادم ، بمعنى أنها شهادة زور إلى أن يثبت من تمحيصها وتدقيقها وقراءة مراجع كثيرة غيرها بأنها شهادة حق . بل كثيراً ما أكتشف أنها شهادات وإن كانت حقيقية إلا أنها يراد بها فى النهاية باطل ، والاستثناء نادر ، ولكنه بالقطع موجود ، وبالذات فى مذكرات محمد إبراهيم كامل ، إنها شهادة حق تأكيداً لموقف حق ، ولا يراد بها سوى إزجاء الحيثيات لموقف تم بلا شرح أو تبرير أو حيثيات .

وهكذا حدثت نفسى وأنا لم يبق أمامى فى مقابلتى لمحمد إبراهيم كامل سوى سؤال ، ذلك السؤال الملح : متى بالضبط أحس بضرورة أن ينفض يده من اللعبة ، ولماذا ؟ هل السبب أنه أحس أنها فى النهاية عملية خيانة ؟!

وفعلاً ألقيت السؤال ، وبمنتهى الوضوح والتحديد على محمد إبراهيم كامل بعد أن كنت قد عرفت تماماً أرض الشخصية التى قرأت لها وأحاورها وأدركت أنه يملك كماً من الشجاعة يستطيع أن يجيب به ، وفى الحال على صراحة السؤال بجواب أكثر جرأة وصراحة .

فمن المضحك المبكى أن مذكرات محمد إبراهيم كامل حافلة بالمواقف التى يندى لها الجبين خزياً لأعضاء مجلس الأمن القومى المصرى ، أولئك الذين ارتضوا لأنفسهم أن يكونوا أعضاء زينة فى مجلس مفروض أنه يقرر أن يخوض شعبنا حرباً أو يصوت على سلام أو استسلام ، مجلس ، مثيله فى أمريكا أو فى غيرها ، يعتبر كل عضو فيه ليس مجرد موظف يقول : نعم يا افندم وحاضر يا افندم ، ويظل صامتاً

وهو يرى ويسمع خطل كلام رئيس المجلس وخطورته ، وإنما كل عضو فيه عقل قائد ، وشخصية ، ومسئول مثله مثل الرئيس تماماً عن حاضر شعبه ومستقبله ، ومسئوليته تاريخية لابد أن يحاسب نفسه ويحاسب الشعب عليها أدق وأعسر حساب[3].

سجل محمد إبراهيم كامل على الملأ ، فيما خلا آراء ومواقف الدكتور أسامة الباز رغم أنه كان أصغر عضو فى المجلس سناً ومجرد وكيل وزارة ومدير مكتب نائب رئيس الجمهورية بين العتاولة الكبار ، فيما خلا هذا لم يكن أحد من أعضاء المجلس يجرؤ على تفنيد رأى واحد من آراء السادات ، بل كانوا يتولون فى السر تحذير كامل ونصحه بالصمت مثلهم ، مخافة أن يغضب السادات من الآراء التى يعارضه بها .

وهكذا مأساتنا الكبرى كعرب ، نظل نقول للرئيس أو للطاغية نعم ونعم ونعم ونهز الرءوس ونحن موقنون تماماً أن ما يقوله خطأ جسيم وجريمة قد تؤثر فى شعبنا ويمتد أثرها المدمر إلى أحقاب وأجيال ، نظل نفعل هذا دون ارتعاشة ضمير تذكرنا أن الساكت عن الحق شيطان أخرس ، وأن الطاغى يطغى لسكوتهم أكثر مما يطغى بنوازعه هو وخصاله الطاغية ، وأنه إذا كان فى الأمر جريمة تبدأ بهم أولاً وتنتهى بهم أخيراً .

ولأن أحداً من أعضاء مجلس الأمن القومى السابق لم يفتح فمه بكلمة يعلق على ما رواه محمد إبراهيم كامل عما دار فى جلسات ذلك المجلس من مؤامرة صمت فاجعة على مصير السياسة المصرية وهو يتحدد أمام أقطاب تلك الفترة ، فمعنى هذا أن ما ذكره صحيح ، وأنهم فعلاً مدانون .

بربك .. يا إلهى ، ما هى المصيبة التى كانت ستحدث لأى منهم لو قال رأيه الصريح ، أو أيدتم الحق الصريح إذا قاله الغير ، وأخذتم الموقف الجدير بالرجال ؟ هل كانت ستعلق لكم المشانق ؟ إن أقصى ما كان يمكن أن يحدث هو أن يقال إياكم أو يستقيل ويبعد عن ((الصورة)) ، تلك الصورة التى استعبدتكم إلى درجة بيع الذات والضمير والرأى مقابل الظهور ، مجرد الظهور فى الصورة ، وكأنكم طلبة الشهادة الابتدائية يفرحون بالصورة ، يجلسون فيها ، لأول مرة بجوار الناظر .

كارثة حقاً ، كارثة أصادفها يومياً ، وأنا ألقى بين كل حين وحين واحداً أو أكثر من عتاولة هذا الزمان أو ذاك ، أولئك الذين كانوا يوماً فى الصورة ، وكانت ترتعد

---

[3] ولابد أن أنوه هنا بالدور الشجاع المبادر الذى قام به السيد / حافظ إسماعيل ، مستشار الأمن القومى المصرى أثناء حرب 73 وبعدها ، حين استجاب ونشر رأيه ـ بعد فرقعة الاتهامات المشهورة ـ والذى نشر بمجلة المصور فى عدد 12 مايو ، وأكد فيه أن ما افترضته عن احتمال الثغرة كان صحيحاً وكان مقدراً من الجانبين المصرى والإسرائيلى .

لذكرهم الأبدان ، يا لكم الهيافة والتهافت الذى أجده فى أشخاصهم ، إلى درجة أن أقول لنفسى : يا للهول !

أهؤلاء كانوا حكامنا فعلاً ؟ ألهذا اختيروا واستمروا ؟ ألهذا كانت خيباتنا العربية والمحلية أغرب وأشهر خيبات جميع الشعوب فى جميع العصور وجميع أنحاء العالم .

ألقيت السؤال على الرجل : متى أدرك أنه يجب أن يرحل ، وأن رائحة الطبخة قد بدأت تفوح ؟

وأجاب محمد إبراهيم كامل ، والغريب أنه لم يقل كلاماً جديداً ، فقد تذكرت أنى قرأته فى إحدى حلقات مذكراته ، التى رغم دقتها الشديدة ، بل ربما لحرصه على هذه الدقة عذبتنى قراءتها ، فالأحداث عنده متساوية الأهمية بحيث من الممكن أن يضيع الموقف الجوهرى حين يتوه وسط حشود التفاصيل ، التفاصيل التى كثيراً ما يضفى عليها أهمية تقفز بها إلى مصاف مزاحمة الحوادث الأخطر ، وهكذا ، حين أجاب ، بدت الحقيقة واضحة وضوح الشمس ، أو بمعنى أصح ، مد يده داخل حانوته المزدحم بالتفاصيل والجزئيات واستخرج جوهرة الموقف كله ، ووحدها أضاءت داخل وخارج الدكان ، وامتد ضوؤها من القدس إلى معسكر داود ، إلى اللحظة الحرجة التى نحياها الآن .

كامب ديفيد بداية وليست نهاية

قال : وصل السادات إلى كامب ديفيد وقد سلم آخر قطعة من ملابسه لدى أول خطوة خطاها داخل المعسكر ، بتعبيره الصريح . وصل عارياً ، ومفتوح العينين ، ومدركاً ، كان يعلم وهو جالس إلى مائدة المفاوضات وأمامه بيجن فى كامل زيه حتى ربطة العنق ، وبجواره خلاصة مستشاريه ومئات الردود الجاهزة المجهزة المفحمة على أى وكل اعتراض أو مطلب أو محاولة تبرير ، حتى بزوجته ، وقد حفر لها خندقاً بجواره تحشو له أحزمة الرصاص ، بكارتر وقد استدرجه إلى حد جعل رئيس أمريكا يقامر بالرئاسة وبمستقبله السياسى ويمسك هو ((بيجن)) بيده جوكر الكسب أو الخسارة وبحنكة محترف قمار وتهويش يلعب بأعصاب ((الشريك الكامل)) الذى راهن بكل ملابسه وإن بقيت على جسده ، والشريك الآخر الذى باع ملابسه قبل أن يجلس إلى المائدة ، ولهذا فهو يلعب من جيب الشريك الكامل بحيث إذا كسب فالمكسب كله للشريك الكامل ، وإذا خسر فماذا يأخذون من الصينى الذى أصبحه بعد غسيله ؟!

بتصوير وتصور الوزير السابق كامل أن الاستربتيز السياسى بدأ بالقدس وزيارتها .

وبتصوير وتصور الكاتب الكبير الأستاذ هيكل أنه بدأ من مظاهرات 18 ، 19 (انتفاضة الحرامية كما يسميها الحرامية وانتفاضة الشعب كما يسميها الشعب) .

وليس السيد محمد إبراهيم كامل ولا الأستاذ محمد حسنين هيكل ولا كل من لا أعرف وأعرف من مفكرى المرحلة وكتابها الكبار هم فقط من حاورت وحاولت العثور معهم على البداية ، فبعضهم يذكر أن البداية كانت بالضبط مع كيسنجر وقبيل مفاوضات فض الاشتباك الأول أو المشهورة بمفاوضات الكيلو 101 ، وآخرون يؤكدون أن البداية الحقيقية كانت فى عصر عبد الناصر نفسه ، وأثناء حياته وأن السادات سراً ، كان وطَّن نفسه على رفض السياسة الناصرية كلها وعلى رأسها التطبيق الاشتراكى فى الداخل والتحالف الاستراتيجى مع السوفييت والعداء الاستراتيجى مع أمريكا والارتباط الكامل بعدم الانحياز والإيمان المطلق بالقومية العربية سياسة ثابتة للتحرر الوطنى ، وأهم من هذا وذاك إيمان دفين أن النموذج الأمريكى فى الحياة وفى السياسة هو أروع ما يمكن أن يعيشه الإنسان ، السادات ، ومصر إذا ولى أمرها السادات .

وأستطيع أنا شخصياً أن أضيف باعتبارى من أوائل الكتاب المصريين الذين عرفوا السادات وعرفهم السادات فى أوائل الثورة عن قرب ، بالنسبة لى بالتحديد التقيت به في جريدة الجمهورية أيام كان رئيس مجلس إدارتها وأعجب بى ككاتب إلى درجة أن عهد لى بكتابة عموده اليومى الذى كان يشكل افتتاحية الجمهورية موقعاً باسمه ومكتوباً بكليشيه بخط يده . أيامها كنا قد بدأنا نغير رأينا تماماً فى ((الثورة)) وبعدما كنا قد اصطدمنا معها باعتبارها ديكتاتورية عسكرية جاءت لتصفية الحركة الوطنية المتصاعدة ضد الإنجليز ولمصلحة الاستعمار الجديد مما أدى إلى صدام عنيف تماماً مع الثورة ، أغلقت بسببه جريدة المصرى العظيمة التى كنت أحد كتابها ، وحدثت مظاهرات مارس ، وكادت الحركة الوطنية تنجح فى إقامة حياة دستورية نيابية حزبية وإعادة الجيش إلى ثكناته بتأليف وزارة خالد محيى الدين الشهيرة ورئاسة محمد نجيب الشديد الحماس للحكم بالنظام الديمقراطى الغربى ، كادت تنجح لولا خطة عبد الناصر الشهيرة التى نفذها الصاوى والمفاوضات التخديرية مع قيادات الإخوان والشيوعيين والاتفاق على إشراكهم فى الحكم ليؤيدوا استمرار الجيش والثورة ، ثم ضربهم بعد هذا جميعاً ضرب غرائب الإبل.

وضربنا ، عدد من الكتاب الأحرار فى ذلك الوقت معهم .. وأنا شخصياً قبض علىَّ فى أغسطس 54 وحقق معى بتهمة تكوين جبهة وطنية مع الوفد ممثلاً فى الأستاذ أحمد أبو الفتح الذى كان قد هاجر إلى لبنان ، جبهة ((لقلب نظام الحكم)) بكل التهم المحفوظة لمثل هذا النوع من ((الجرائم السياسية)) ولكن حين حقق معى ولم يتمكنوا من ضبط الوثيقة الخطيرة التى كنت قد كتبت فيها بخط يدى خطة ومشروعاً كاملاً لجبهة وطنية تسقط النظام العسكرى آنذاك ، لعدم توافر أو العثور على أدلة أودعت المعتقل فى القلعة وسجن مصر وليمان أبى زعبل و ((الأردى)) ورحلت مع الإخوان إلى السجن الحربى ، وعدت إلى سجن مصر .

ولكن تلك قصة أخرى ربما يجئ وقت نحكيها . فلا مجال للفخر أو التفاخر بها وأنا شخصياً لا أحترم كثيراً أولئك الذين لم يعد لهم ثمة عمل إلا أن يذكروا لك أيام المعتقل ودولة الاستخبارات والتعذيب ، مع أنى والكل يعرف أن هؤلاء الجعجاعين ، واحد منهم عالى الصوت تماماً فى هذا المجال كل ما دفعه من ضريبة الحرية هو أربعة وعشرون ساعة قضاها بالقبض الخطأ فى سجن الاستئناف الذى كان يعتبر ((هيلتون)) السجون فى ذلك الوقت .

بتأميم القناة وباندونج وصفقة السلاح ذات الطابع العسكرى لحركة الجيش ، اتخذت الثورة طريقها لقلب الشعب وقيادته وأفرج عنا بالتالى ، ورأينا التغير الهائل الذى حدث وغيرنا موقفنا ، ووصلنا إلى حالة صلح ، بل وجبهة متفقة تماماً وإلى حد التضحية بالروح مع الثورة . وحينذاك عرفت كما قلت السادات . ذلك العضو المعروف المهاب فى مجلس قيادة الثورة ، والثورة يومها فعلاً أصبحت ثورة

عظيمة جليلة ، ويفخر الإنسان بالانتماء ، مجرد الانتماء لها ، فما بالك وهذا عضو فى مجلس قيادتها المحدود وأحد أبطالها .

ولكن .

ولأن الحيز المتاح ضيق ولا مجال عندى للإطالة ، ورغم أنى ظللت أعمل مع السادات حتى نقلنى تماماً من وزارة الصحة إلى المؤتمر الإسلامى لأتفرغ لكتابة ثلاثة كتب تحمل اسمه واعتبرتها أنا مهمة وطنية عليا ، إذ أن أحدها كان عن حرب السويس الوطنية والعدوان الثلاثى ، وقع فى خمسمائة صفحة وترجم ونشر باسم أنور السادات فى دار نشر هندية وزعته بالإنجليزية على العالم أجمع بعد أن رفضت دار النشر البريطانية إدراجه فى قائمة مطبوعاتها لأسباب خاصة بدور بريطانيا وإيدن فى مؤامرة السويس ، رغم هذا ورغم انبهارى كشاب بشخصية السادات التى كنت أتابعها منذ اغتيال أمين عثمان ، واغتيال عبد القادر طه الذى استقبلته كطبيب استقبال فى قصر العينى مصاباً بخمس رصاصات من خلف وأمام قوضت بنيانه المتين ، واعترف لى قبيل وفاته وحين أعلمته أنه مقدم عليه أن شخصاً اسمه ((على حسنين)) يعمل فى الحرس الملكى الحديدى هو الذى استدرجه ، وذكر أسماء مصطفى كمال صدقى وأنور السادات وطلب استدعاءهم ، وجاء الأول ، ولم أكن أعرف شيئاً عن الحرس الحديدى ولا دور يوسف رشاد ، ونكوص عبد القادر طه عن الانضمام بتأثير أخيه أحمد طه الزعيم العمالى الذى كنت قد تعرفت به فى لجنة الطلبة والعمال التى كنت منضماً لها .. قصة طويلة طويلة ، فتحت وعيى لأول مرة على دور الجيش فى الحركة الوطنية الذى لم أكن أعرفه ، وعن مؤامرات الملك ضد الضباط الوطنيين ، وكما ترون ، فرغم اتساع الحركة الوطنية قبل الثورة وبعدها ، فمن الواضح أنه عالم صغير ، وأننى رغماً عنى وأنا فى صدد الحكم على كامب ديفيد والسادات أن أجد نفسى وجيلى غارقين إلى آذاننا فى قلب ثورة 23 يوليو وما قبلها وما تم بعدها ، وإلى الآن .

الموقف يخلق الشخصية ..
والشخصية تشوه الموقف !

وبالضبط مثلما وصل السادات كامب ديفيد وقد سلم جميع أوراقه - وكأنما هذا دأبه - فلقد وصل السادات إلى يوم 23 يوليو وقد استنفد تماماً كل طموحاته الثورية ، ولم تعد تربطه بحركة الضباط الأحرار إلا صلته الشخصية بجمال عبد الناصر ، كانت إعادته للجيش عن طريق يوسف رشاد قد ألقت ظلالاً كثيفة على ماهية موقفه وميوله بحيث إن كثيرين اتهموه فعلاً أنه انضم للحرس الحديدى وأصبح من رجال الملك بعد أن بدأ ثائراً متمرداً على السراى والأحزاب المتهاونة .

وهو نفسه ذكر أن الثورة قامت وهو غائب فى دار للسينما ومعه ((كعب)) التذكرة التى من الممكن أن تصلح دليلاً على وجوده بعيداً عن ((المؤامرة)) لو انكشفت الثورة وقبض على الجميع ، بل إن البعض فسر أن عبد الناصر اختاره ليلقى بيان الثورة الأول لكى يذر الرماد فى عين الملك ورجاله ويطمئنهم إلى أن رجلهم هناك ، ومعظم الذين عرفوا أنور السادات فى ذلك الوقت سمعوا منه قولته المشهورة : إن الثورة جاءته بعدما كف عن الثورة أو أصبح هدفه بعيداً تماماً عن مشاكل ومخاطر الثورة وحكم الثورة والسياسة كلها لو أمكن ، وهكذا يفسرون سبب بقائه ، مجرد البقاء بلا فاعلية فى ((الصورة)) حتى عينه عبد الناصر نائبه وآل إليه الحكم ، فلو كانت لديه ذرة طموح لدور غير دور المتفرج لالتقطها عبد الناصر على الفور ولأصبح مصيره كزكريا محيى الدين والبغدادى وغيرهما ، النفى التام من الحياة السياسية .

وقد تبدو هذه المسألة لا محل لإيرادها بالتفصيل هنا ، ولكن العكس هو الصحيح ، فهذه النقطة تمثل فى رأيى حجر الزاوية فى كل ما قام به السادات وما اتبعه من سياسات بعد توليه رئاسة الجمهورية ، فهى لم تكن سياسات قائمة على مبادئ نابعة من إيمان وعقيدة ثابتين لدى السادات ، كانت كلها ومنذ اللحظة الأولى وسائل تتيح للسادات كل مزايا ومغانم الحكم دون مشاكله ومغارمه ، الاستراحات والأزياء والاستمتاع إلى أقصى الدرجات بأطايب الحياة وإرضاء نزواته جميعاً وعلى رأسها ميوله التمثيلية والاستعراضية وكثرة الظهور فى التليفزيون المصرى ، ثم بعد هذا شاشات العالم وصفحات جرائده ومجلاته الأولى . وقد أدرك الغرب هذا كله ، ولعب عليه بمهارة مذهلة . إن الرغبة فى الشهرة والظهور تدفع أناساً من أمثال هذا الشاب الذى حاول قتل ريجان إلى ارتكاب أبشع الجرائم فقط من أجل أن يطفو فوق سطح الدنيا ، وتتداول الملايين اسمه . فإذا وصل تفريط السادات بمصير

الشعب والبلاد إلى درجة الجريمة ، فسوف يكون من أوائل دوافعها الوجود الإعلامى العالمى المخل بالعقول المحبة للظهور وللدعاوى ولو كانت كاذبة .

وصل السادات كامب ديفيد وقد أدرك ، أو بمعنى أدق جعلوه يدرك أن وجوده السياسى الرئاسى الزعامى قد ارتبط بمبادرة القدس بحيث لو فشلت لانتهى هو نفسه معها وفشل ، فهى ـ هكذا أفهموه وغسلوا له عقله وعزفوا على نقطة ضعفه تلك ببراعة إجرامية وجعلوه يؤمن أنها تحولت من محاولة حل أو خطوة قد تنجح وقد تفشل إلى الطريقة الوحيدة الأخيرة ـ ليس لحل مشكلة الشرق الأوسط أو استرداد سيناء أو الحل الشامل العادل للقضية . وإنما ـ هو الأهم تماماً ـ إلى وضع ارتبط به كل مصيره ومصير حكمه ، بحيث لو فشلت فمن المحتم أن يفشل هو معها ويسقط . ولم تكن تلك هى المرة الأولى التى يلتحم مصيره هذا الالتحام الكامل بطريقة حل ، فمنذ أن ولى الرئاسة وهو يحاول أن يفك الاشتباك القائم بين بقائه فى الحكم وخوض الحرب ـ أى حرب ـ بلا جدوى ، وحين تأكد له ، خلال الهبة الوطنية الرهيبة فى أوائل عام 72 أنه ما لم يحارب فإنه سيسقط ، بدأ ، لأول مرة ، يجهز جدياً للحرب ، حرب الدفاع عن الحكم والذات أولاً ، ويحيطها بأقصى درجات الأمن والأمان له ، فأى خطأ يعنى النهاية ، بحيث إن المتأمل لسلوكه منذ نجاح الجيش المصرى فى عبور القناة والانتصارات الأولى ، يجد ، أنه كان يفعل المستحيل ليتخلص وبأسرع ما يستطيع من حالة الحرب ، وكأنه الطالب المرعوب من امتحان. ما إن يجيب على السؤال الأول فيه حتى يبلغ به جنون الفرحة حد أن يقف يعلن للعالم أن الامتحان انتهى وأنه نجح ، ويعلن لكيسنجر أنه راض بأقل القليل مقابل أن تفرج أمريكا وبالتالى إسرائيل عن مصيره المربوط بإحلال السلام ، أى سلام ، وبأى كم أو كيف . وكأنها حرب نجح فيها بضربة حظ لن تتكرر ، وليس بأداء عظيم لقوات وطنية مسلحة أذهلت ببسالتها العدو والصديق .

وهكذا دخل الخيمة 101 ، وكان عليه ليخرج منها بنتائج تتناسب مع حجم الانتصار المصرى المنقوص والهزيمة الإسرائيلية غير الكاملة ، كان عليه أن يعتمد على مؤتمر جنيف ، وعلى إدخال الاتحاد السوفييتى كطرف ، وعلى ربط سيناء بالقضية الفلسطينية وعلى عودة لتلاحم أقوى مع العرب ، وهى كلها كما هكذا رأى ، معوقات تعيقه عن الجرى من حالة الحرب بأقصى ما يستطيع ليحافظ على العصفورة الوحيدة التى وجدها فى حوزته .

وهذه اللهفة المرعوبة نفسها هى التى دفعته لكى ((يخلع)) من السعودية وسوريا ومعظم الدول العربية بحيث انقصم العمود الفقرى للكائن العربى المذهل العملاق الذى تفتقت عنه الحرب . هى اللهفة التى التقطها ـ بذكاء الشياطين ـ كيسنجر حين جاء إلى المسرح الشرق أوسطى فى أعقاب الحرب ، وبلا مجهود كبير أدرك سبب انتصار العرب فى حرب العبور العسكرى والبترولى المجيدة تلك ، السبب كان ذلك التحالف الهائل الذى تم بين مصر والسعودية وسوريا والذى به تشكل ، ولأول مرة

منذ نشأت القضية العربية ، تشكل عملاق عربى حقيقى يملك الجند والطاقة والدم والدولار ، تحالفاً غير فى أسابيع قليلة من خريطة المنطقة والعالم السياسية والاقتصادية ، وبه تأكد ، وللمرة الأولى أيضاً ، رجوح كفة العرب على كفة إسرائيل رغم أى مساعدة أمريكية أو غربية ورغم أى تشرذم عربى قائم .

هكذا رأى الحاذق كيسنجر الموقف ، وأيضاً رأى الحل ، ولكسر العمود الفقرى ، وجد السادات يقدم له الطريقة بلا أى تحفظ . والطريقة هى خلع مصر أولاً من هذا التحالف ثم خلعها من المعسكر العربى نفسه ، وقد كان . فلقد بدأ يدق إسفيناً رهيباً بين مصر والسعودية ودول الخليج بأن ضخم للسادات انتقاداتهم المرة لفض الاشتباك مؤكداً أنها - السعودية والدول الأخرى - تريد أن تفوت على مصر انتصارها ، و ((تفرمل)) الصعود الهائل لدور مصر القيادى الذى تنامى بسرعة بمجرد خوضها للحرب ، ولقد ساعدت الخطة الكيسنجرية عوامل عربية صورها السادات على أنها رغبة دفينة فى إذلال مصر عن طريق صندوق الدعم الخليجى وشروطه ، وعودة لقصة صندوق الدين الاستعمارى على يد ((العرب)) هذه المرة. وأوقعوا بين سوريا ومصر عن طريق إذكاء التناحر والخلافات حول دور كل من مصر وسوريا فى الحرب ، باختصار ، واستغلالاً للهفة السادات وخوفه أن يطير عصفوره ، خلعوا مصر من الجبهة ، وأدخلوها الخيمة ، وهكذا اشتعلت حرب أخرى عربية - عربية أو عربية - مصرية ، وبعد شهور قليلة لم يعد قائماً من بقايا العمود الفقرى إلا ذكرى لشئ يثير الحلم ، حدث وكان ، وإلا نزاع حول حجم المعونات وذمة القائمين عليها .

ألا يبتلع السادات الطعم إلى آخره ، طعم المفاوضات . أجل ، فى سنة 73 اكتشف العرب أنه بالحد الأدنى من التنسيق يصبحون قوة مرعبة . واكتشف أعداؤهم أيضاً الوسيلة لمنع هذا التحالف ، وسيلة المفاوضات المباشرة الثنائية بين إسرائيل وكل طرف من أطراف القضية على حدة .

المفاوضات الثنائية التى تصبح فيها إسرائيل - باتفاق تام مع أمريكا - اليد العليا ، وتصبح الدولة العربية الداخلة فيها ، ليست الطرف الأضعف فقط ، وإنما الطرف ((الخائن)) أيضاً ، الطرف المرفوض المتعاون مع العدو الذى يجب أن نقف منه جميعاً موقف العداء ، وهكذا ، دولة إثر دولة ، وخيمة إثر خيمة ، والإسماعيلية إثر قلعة ليدز ، إثر خالدة إثر كريات شمونة ، يتفكك الوجود العربى المتكتل ، ومن معسكرين : صمود وتصد فى ناحية ومعتدلين حلفاء لأمريكا من ناحية أخرى ، إلى صمود انقسم ، وعراق عينت لها إيران مسئولة عن شلها وشل فاعليتها ، ومعتدلين سحبوا واحدة أو أكثر من الصمود ، وأحداث لبنان تجئ لينتهى حفل الختام بالشعب العربى ، وقد فقد تماماً الثقة فى التصدى والاعتدال ، العقد انفرط ليبدأ الاكتشاف العظيم - المفاوضات المباشرة الثنائية لو أمكن - يأخذ دوره ، حتى لتصبح منظمة التحرير بجلالة قدرها هى التى تنتظر دورها على باب الخيمة ،

المار بكامب ديفيد وكريات شمونة ، المؤدى حتماً ، من يدرى ربما إلى اتهام المنظمة بالتهاون والتحالف مع العدو الإسرائيلى .

مقامرة المفلس !

وجاءت كامب ديفيد ، آخر قشة يتعلق بها السادات لينقذ المبادرة التى بادر بها وبادرت هى به كى يدخل الكامب ولم يعد فى جعبته سهم واحد يناور به .

لم يكن هناك أمامه ليغرى إسرائيل بمفاوضته سوى التلويح بتنازلات أكثر ، مثل التطبيع الكامل بين مصر وإسرائيل ، واحتمال موافقة مصر على حل مشكلة الفلسطينيين حلاً أحسن قليلاً من حل مشكلتهم كلاجئين ، وعلى وعد بالقطيعة التامة مع العرب .

يعنى دخل السادات كامب ديفيد ـ هكذا بمنتهى البساطة ـ ليقدم تنازلات فى مقابل الجلاء عن سيناء ونزع سلاحها ، مقابل بلايين المعونات والأسلحة الأمريكية تتدفق على إسرائيل وترفعها من دولة فى عشرة أيام سُحِقت إلى دولة مستحيل أن تـُهزم.

وهو طريق ذو اتجاه واحد وحيد .

فقد ذكر السادات لمحمد إبراهيم كامل وهم فى الطائرة المتجهة لكامب ديفيد : نحن لن نخسر شيئاً ، إذا أعجبتنا الشروط ، ورضينا عن إطار السلام واتفقنا كان بها ، وإن لم تعجبنا ، قطعنا المفاوضات وعدنا ، وقد بينا للعالم وكسبنا رأيه العام بأن ذهبنا مع إسرائيل إلى آخر المدى ، ولكن التعنت الإسرائيلى هو المسئول عن الفشل .

قال هذا .

ولكنى ـ ومع الحقائق التى لا تقبل الشك ـ أشك كثيراً إن كان باستطاعة المفاوض المصرى أن يحزم حقائبه ويرفض ويعود دون اتفاق .

السؤال هو : ماذا يتلو موقفاً كهذا ؟

حل عسكرى ؟ نكتة مضحكة تماماً هنا .

أم مزيد من التحايل على أمريكا ورجائها ؟

ولكن أمريكا فى كامب ديفيد موجودة ، رئيسها وسياستها وأقصى ما تستطيعه هناك ، ولا يوجد خارج كامب ديفيد ، أو بعدها ، أى أمل فى استجابة أكثر ، أو أى قدرة على ضغط أكثر .

أيكون البديل أن يعود السادات إلى القاهرة ، ويعلن عن فشل جهوده السلمية ، ويرى الدول العربية أنه أخطأ باللجوء إلى المبادرات والمفاوضات ، وأنه مستعد للذهاب إلى أى عاصمة عربية والاعتذار عما كان وبدر ، وإبداء الاستعداد لعودة متكتلة جديدة تخضع لأقصى شروط دول التصدى والمواجهة تطرفاً ؟

أيفعل السادات هذا ، باعتبار أنه البديل الوحيد فى حالة فشل المفاوضات ؟ بالطبع مستحيل أن يعود هكذا ويتصور شماتة دمشق وطرابلس ، ناهيك عن الجزائر واليمن ، حتى تونس والمغرب ، مجرد تصور المشهد ، مستحيل .. الانتحار ولو سياسياً أهون منه .

أبداً .. مستحيل ..

بيجن قبل أى إنسان آخر كان يعرف أن دخول السادات كامب ديفيد معناه الواضح أنه شاء أم أبى ، قَـبِـلَ فعلاً ، ومسبقاً أى شروط أو تحفظات تلح إسرائيل أو تعاند فى فرضها ، إنه طريق الاتجاه الواحد الذى لا عودة معه ولا محيص .

المسائل ليست لعبة .

حتى لو كانت لعبة فأنت أيها الرئيس محمد أنور السادات تلعب مع أناس تدربوا على اللعبة مئات السنين وليس عمرهم فى الملاعب عامان مثلك .

ليس تعنت بيجن ولا مثالية كارتر ، ولا شريك كامل أو غير كامل ، هذه كلمات لا معنى لها بالمرة ، منذ الكيلو 101 أنت أخذت الحل الثنائى حلاً تفض به اشتباكاً مصرياً إسرائيلياً لتدخل فى اشتباك حاد ، مصرى - عربى ، منذ مبادرة القدس وأنت مزقت كل أوراق لعبتك العربية وما تبقى منها أهديته طائعاً مختاراً لكيسنجر وكارتر ، بل منذها لم يعد لديك أية أوراق لعب بالمرة ، وليس أمامك سوى أن ((تسحب)) وأنت مغمض العينين ، وتسحب وأنت متأكد أنك تسحب أوراقاً قيمتها فى انخفاض مستمر أو هى أوراق الذى ترك ((العزومة)) ومضى ((يشحذ)) ، ويقترض .

إن الحياة كالمآسى التراجيدية التى لا ترحم ، والبطل فى المأساة الإغريقية إذا اختار طريق الندامة ، يصبح مجنوناً لو تصور للحظة أن ضربة حظ مفاجئة ممكن

أن تسفر عن علامة أو ورقة أو درب سلامة ، كالبطل التراجيدى ليس أمامك سوى أن ـ بقدميك ـ تظل تمضى فى الطريق ، حتى تنتهى إلى النهاية المحكومة والمعروفة سلفاً ، ومنذ لحظات اختيارك الأولى .

كان ممكناً أن يتراجع السادات بعد القدس مباشرة وبالتحديد فى اجتماع الإسماعيلية . كان ممكناً أن يتراجع بعد مفاوضات ليدز فى إنجلترا .

كان ممكناً أن يتراجع وهو لا يزال يفاوض ويتكلم مع الأمريكان ، مع الوسيط ، أما وقد قررت أن تدخل مباشرة معسكر نجمة داود ، وتستدعى وزير الدفاع الإسرائيلى فايسمان لسالزبورج ، وتلعب بورقة بيريز لتناور بيجن ، وتصاعد من حملاتك على البلاد العربية إلى درجة تحترق معها كل كباريك معها ، وتلعن الاتحاد السوفييتى وقادته بل وحتى شعوبه بمثل ما لم يلعنه أحد من قبل أو من بعد ، ويصبح الموقف بينك وبين منظمة التحرير صراع موت أو حياة .

حين يكون هذا كله قد حدث ، فلا يعود باقياً ـ ليس أن تغلق حقائبك وتقطع ـ وإنما أن تكمل الرواية ولم يبق على نهايتها إلا مشهد واحد ، تعلن فيه أمام الناس ما قبلته فعلاً ووطنت نفسك عليه ، وحتى الحل الشامل والقضية الفلسطينية ، يكفيها ورقة خطاب ـ أقصد ورقة توت ـ تنفصل عن المعاهدة ، وتذكرها تحت بند البرنامج الإذاعى الشهير : كى لا ننسى .

أجل ، كامب ديفيد وقعت وتمت قبل أن يفتح أى من الأطراف الثلاثة فمه ، فلم يكن أحد فى حاجة لأن يفتح فمه ، فالحقائق معروفة للأعمى ، ولا يمكن لعامل آخر ، عامل الحقائق أن يتدخل أو يغير من الأمر شيئاً .

ولهذا أنا أعجب أن المفاوضات استغرقت ثلاثة عشر يوماً ، فى ماذا ، وفيم كان الخلاف ؟ الخلاف حول مستعمرات سيناء كان خلافاً مسرحياً ، فلو كان رأى بيجن والإسرائيليين أن ياميت وغيرها مبادئ غير قابلة للمساومة لما تنازل عنها وفدهم ، وبعدها برلمانهم ، ولما استغرقت المفاوضات ثلاثة عشر يوماً .

وحتى الخطابات المتبادلة بشأن مفاوضات الحكم الذاتى ، لو كانت إسرائيل رحبت بتبادل تلك الخطابات فمعنى هذا أن يد مصر كانت ستظل طليقة فيما يختص بهذه النقطة ، وأيهما أصوب بالنسبة لإسرائيل : أن يُـغَـل رأى مصر وينحصر فى دائرة مفاوضات من أجل الاستقلال الذاتى أو أن يترك حراً باستطاعة مصر أن تنادى وتطالب بما هو أكثر .

فى كامب ديفيد أخذت إسرائيل كل ما كان يمكنها أخذه .

وفيها أعطى السادات كل ما كان بإمكانه إعطاءه .

كامب ديفيد التى يهلل لها الساداتيون يقولون إننا بها حققنا إجلاء الإسرائيليين عن سيناء ، وهذا مكسب ضخم ، باستطاعة أى محايد أن يؤكد لهم أن سيناء المنزوعة السلاح المبقاة رهينة تحت تهديد مدافع الجيش الإسرائيلى الملاصق فى النقب ، سيناء هكذا أحسن لإسرائيل ألف مرة من سيناء جرح وطنى دام يؤجج لدى المصريين قضية تحرير لا يعلم سوى الله آثار تأججها وما يمكن أن يؤدى إليه ، سيناء عبء مالى ومسطحات أرض بلا جيش حدود يحرسها ، وفاصل جغرافى يجعل من أى تهديد مصرى للجبهة الجنوبية للإسرائيليين وهم وأكاذيب وأضغاث أحلام .

أنا لا أقلل من شأن استرداد سيناء .

ولكنى أفتح عيون الغافلين الذين يقولون إننا استرددناها بالسلام . إننا استرددناها على هيئة حرب . إن حرب 73 هى التى حررت سيناء ، أو على وجه الدقة البطولة المذهلة فى حرب 73 رغم طعنة السادات للبطولة من الخلف ، سيناء لم تحررها مبادرة القدس أبداً ، وأيضاً لابد أن أنبه إلى حقيقة نكون ساذجين لو تغافلنا عنها ، حقيقة أن سيناء بهذا الوضع تشكل الحلم الذى طالما راود إسرائيل أن تصبح سيناء عليه ، منزوعة السلاح فى معظمها ، حافلة بمحطات الإنذار المبكر ضد أى تحرك مصرى ، لا تنفق عليها إسرائيل مليماً وإنما توفر على نفسها مصاريف الإدارة والصيانة والدفاع العسكرى لمنشآت إنذارية مجانية تعمل لخدمة العسكرية الإسرائيلية فقط ، ولا تستفيد منها مصر أية معلومات عن الوضع العسكرى الإسرائيلى فى الجانب الإسرائيلى ، بينما هى تكشف تماماً موقعنا العسكرى حتى فى غرب القناة والدلتا وتزود الجانب الإسرائيلى بحركة كل عربة أو طائرة أو طلقة مدفع .

خسرنا كل شئ
وكسبوا كل شئ

كانت مصر هى الخاسرة ، حتى قبل دخول المفاوضات ، فى كامب ديفيد خسرنا ما حققناه بالعبور والحرب ، ولم نكسب السلام ، بدليل أن الرئيس حسنى مبارك ذكر بنفسه أنه خلال مجزرة لبنان واستعداداً لها حشدت إسرائيل سبع عشرة فرقة من جيشها على حدودنا .

بربكم ، أيها المالئون الدنيا ضجيجاً وفرحة بتحقيق السلام ، وانتهاء الحرب ، وتوفير الصرف على الجيش ، يا هؤلاء ، أى سلام هذا الذى يمكن أن نحسه أو نتصرف على أساسه ونحن مهددون لدى أى حركة فى المشرق العربى ولدى أى اضطراب يحدث ولا يكون لمصر أبداً يد فيه ، مهددون بالآلة العسكرية الإسرائيلية تنتشر على حدودنا الشرقية وتكشر عن أنيابها ؟ ومن يدرى ، ربما فى المرة القادمة تنقض وتضرب ؟ ألا يترتب على هذا أننا لابد ، رغم معاهدة ((السلام)) وفكرة السلام ، وحكاية آخر الحروب ، لابد أن نبقى على جيوشنا كاملة ومسلحة ومستعدة لنحمى بها ((السلام)) المزعوم ؟ أم نفرط ونفرق جيشنا ونصفيه تجاه دولة ما تكاد فيها سماء المنطقة تتعكر حتى توجه لنا الآلاف المؤلفة من فوهات مدافعها وطائراتها وصواريخها وبنادقها ؟

أى سلام هذا الذى حصلنا عليه بمعاهدة السلام ؟

إننا فى الحقيقة لم نحظ إلا بكلمة نظرية محضة اسمها السلام ، علينا طول الوقت أن ندافع عنه وعن أرضنا وعن احتمال العدوان علينا ، وندافع عنه ونحن ((مكتفين)) بسيناء المنزوعة السلاح وبمعاهدة كامب ديفيد ، ومضحك فعلاً أن نعطى الإسرائيليين فى كامب ديفيد - فوق ترسانة سلاحهم - سلاحاً أضخم هو سلاح غل يدنا وتقييد حركتنا حتى على أرضنا فى الدلتا والوادى ، فما أخذناه إذن فى كامب ديفيد ليس السلام ، وإنما أخذنا مقلب أن نسالم نحن بينما هم يتسلحون ويحشدون بكامل ومطلق حريتهم ، وننزع نحن سلاحنا بأيدينا عن سيناء وننزع بأجهزة الإنذار المبكر السرية المفروض أن نتكتم بها أمور دفاعنا الشرعى عن أنفسنا ، بالسلام المزعوم حررنا يد إسرائيل تعربد فى المنطقة وعلى حدودنا وغللنا يدنا حتى عن أن تدافع عن سلامنا وأرضنا داخل البيت المصرى نفسه . بكامب ديفيد إذن أعطينا إسرائيل منحة تفرغ كامل تصفى فيه الموقف العسكرى والسياسى فى المشرق العربى كما يحلو لها .

وفى نفس الوقت خسرنا نحن الموقف هناك وعادينا دوله .

وما لم تستطع إسرائيل تحقيقه فى جبهة القتال عام 73 حققته بسلاح المفاوضات والطابور الخامس الكائن فى الـ 99 ورقة الرابحة فى يد أمريكا .

وماذا كان يمكننا عمله غير هذا ؟ غير كامب ديفيد ؟!

والإجابة ببساطة هى ، لا شئ أبداً ، لم يكن مطلوباً أن نعمل شيئاً بالمرة ، فإذا كانت الطريقة الوحيدة لأن نعمل هى أن نعمل ضد أنفسنا ومصالحنا ، فليذهب العمل إلى الجحيم ولنأخذ نفس الموقف الذى تقفه الأردن أو السعودية ما دام الطريق السلمى إلى تحرير سيناء يعنى أن نحرر جزءاً من الأرض لنكبل الجزء الأكبر من إرادتنا وحريتنا ، وحركتنا . فمعاهدة كامب ديفيد بمثل ما حررت إسرائيل من التهديد المصرى ، كبلتنا نحن بالتهديد الإسرائيلى الذى لا نستطيع الرد عليه بتهديد مماثل أو حتى الشكوى منه ، فقبل كامب ديفيد كنا مقيدين رغماً عنا ، ومعنى هذا أن حقنا الواضح كان أن نحاول ونناضل لكسر هذا القيد الإجبارى ، بينما بعد كامب ديفيد نحن أصبحنا مقيدين ((بإرادتنا)) وبتوقيعنا .

ويا له من فارق ضخم .

إسرائيلياً وعربياً ودولياً كسبت إسرائيل فى كامب ديفيد .

مصرياً وعربياً وأيضاً دولياً خسرنا نحن .

أمريكياً .

نعم أمريكياً كان النجاح الساحق فعلاً .

فكامب ديفيد اتفاق تطوعى بين بيجن والسادات لتقديم المنطقة وكل نتائج حرب 73 والقوة الذاتية العربية هدية للولايات المتحدة على طبق من الفضة . بحرب 73 ارتفع البترول وانخفض الدولار ، وبثورة إيران تدنت القوة الأمريكية إلى نصف مواقعها عالمياً .

وبكامب ديفيد ارتفع الدولار وانخفضت قدرة الأوبك ووصل الضعف العربى إلى مستوى لم يكن يحلم به أعدى أعداء العرب .

واقتصادياً تضاعفت ديوننا الخارجية .

وشل الوجود العسكرى المصرى تماماً ولم يعد ثمة وجود عسكرى إلا لإسرائيل كى تدمر ، والقوى المتعددة الجنسيات بقيادة البنتاجون لتحيل العربدة الهوجاء إلى وجود إسرائيلى أمريكى منظم .

وما نفعل حتى بما يسمى التدريبات المشتركة لقوة الانتشار السريع والنجم الساطع ، لا يسطع سوى نجمنا إذا هوى وتدنى ، وأصبح عليه لكى يأخذ السلاح أن يدفع الثمن تبعية للاستراتيجية الأمريكية ((للدفاع)) بالأصح تأكيد السيطرة على المنطقة العربية وثرواتها .

تراجيديا السياسة

يعتمد الفن المسرحى أو بمعنى آخر الدراما على قاعدة أن نوع الشخصية يخلق نوع الموقف الذى تعانى منه ، وأيضاً يستطيع الموقف أن يخلق ويوجد الشخصية الملائمة له .

الموقف بدأ بهزيمة 67 .

لأن عبد الناصر كان هناك ، فمع الهزيمة بدأت المقاومة وحرب الاستنزاف وإعادة تكوين القوات المسلحة ، تلك التى توجت فى النهاية بحرب وانتصار 73 .

ولكن ، لأن الذى قاد 67 كان عبد الحكيم عامر وكان مؤكداً أن تؤدى طريقته والمسيطرون على القوات المسلحة من أصدقائه ، إلى الهزيمة النكراء.

والذى قاد الجيش من 67 إلى 70 كان عبد الناصر ، فقد كان محتماً أن يحارب الجيش ويبنى نفسه إلى أن يصل إلى ذروة قوته فى عام 73 ، بل حتى قبلها بكثير . ولكن لأن الذى قاد فى 73 كان الرجل الذى دخل الحرب ليحافظ على حكمه ودولته ، إلى درجة أن الانتصار المبدئى قوض طموحه وأصبح ، وهو المنتصر أحرص الناس على إنهاء الحرب الدفاعية بأى ثمن .

وهكذا وبهذه الروح نفسها قاد عملية السلام ، روح غير المؤمن بأهمية وحجم وكنه انتصاره الذى نحى قوته الذاتية جانباً وراح يستمد القوة من خضوعه التام للولايات المتحدة ، الشريك الكامل ، ليس فى عملية السلام وإنما ، وهذا هو الأهم ، فى عملية الضمان الأكيد لبقاء ودعم نظام السادات والدفاع عنه ضد ويلات الحرب وزوابع السلام[4] رجل كل حلمه أن يحظى برضاء قوة أعظم ، وليس ، كما فعل عبد الناصر ، أن يستخدم القوة العظمى وسلاحها لتدعيم قوته هو الذاتية بحيث حين يحقق المكاسب والنتائج لا يحققها منحة أو نتيجة لتوسلاته ، وإنما يحققها بإرادته وأنفته وذراعه .

---

[4] والدليل الذى تكشف أخيراً جداً واضح الدلالة ، فقد كان من أوائل ما طلبه السادات من كيسنجر فى أول لقاء له معه ، حرس أمريكى شخصى للسادات ، مع أن العلاقات المصرية الأمريكية الرسمية لم تكن قد عادت ، ومعنى هذا ببساطة أنه من لحظتها قرر أن يرتمى تماماً فى حضن أمريكا وإسرائيل ، وأن يعهد إليهما بحمايته من شعبه باعتبار أنه سيقوم من الآن فصاعداً بأعمال ضد هذا الشعب .

الشخصية تخلق الموقف ، والموقف يخلق الشخصية .

وثورة 52 خلقت جمال عبد الناصر خلقاً ليعود يقودها ، ولو لم تكن ثورة ، ولو كانت إصلاحاً أو حركة استقلال لخلقت محمد نجيب أو غيره .

ورغم الهزائم التى منى بها عبد الناصر عسكرياً ، فقد كانت هزائم عسكرية فقط ونتائجها دائماً كانت قوة للثورة .

فى الخرطوم عقب الهزيمة كان العرب أقوى ألف مرة من موقفهم عام 56 عقب انتصار ، وحتى فى موقفهم عام 73 بعد الأسابيع الأولى من الانتصار ، وحين بدأت شخصية السادات تتدخل لتخلق من الموقف المنتصر موقفاً مرعوباً منقسماً مهدداً بضعف قادم أكثر .

ولو كان شخص آخر غير السادات لتغيرت نتيجة الحرب .

ولو كان شخص آخر غيره دخل معركة السلام لاختلفت النتيجة أيضاً .

وهكذا كان من المستحيل على الرجل الذى أعلن بيان ثورة يوليو وفى جيبه تذكرة السينما ، يثبت بها أنه لم يثر ولم يشترك .

كان من المستحيل على رجل كهذا إلا أن يدخل حرب 73 حين تولى ، خوفاً من التذمر الشعبى الهائل نتيجة لحالة اللا سلم واللا حرب .

خوفاً من المصير ، وعوامل أخرى ستكشف عنها الأيام حتماً ، دخل الحرب .

وخوفاً على المصير أنهاها وبسرعة البرق .

وللإبقاء على بقايا البقايا من نتائج الحرب ، وبإرادة خائفة ملهوفة ، دخل خيمة السلام ، أو بالأصح سردابه .

وماذا تنتظر من خائف يتلمس طريقه فى ظلام سرداب السلام ؟ إلا أن يتخبط ، ومع كل خطوة يتنازل خوفاً من عفاريت الظلام ، وانعدام ثقة كامل فى الشعب الذى به حارب وبه انتصر ، واعتماداً على الممسك بيده من كيسنجر إلى كارتر وليس اعتماداً أبداً على نور الواقع والحقيقة الذى يملأ الدنيا ، نور الإيمان بالقضية والشعب ، ذلك النور الذى أطفأه فى نفسه حين قبل العودة للجيش بثمن أن يكون مع الملك ضد القضية وضد الجيش .

رجل كهذا لابد إذا تمكن وحكم ، وصور الأمر لنفسه على أنه حارب وأنه عليه مثلما كان إله الحرب أن يمثل دور ملاك السلام ، ممثل ، مهرج ، الاستراحات اشتكت من نوبات راحته حتى قـُـتـِل وهو يدبر لأيام قادمة يقضيها مسترخياً فى وادى الراحة ، يستريح وكأن جهده فى ارتداء البدلة البروسى العسكرية الفاخرة وجلوسه الساعات يراقب ((جيشه)) فى زهو طالب الكلية العسكرية المراهق لدى خروجه من الكلية بلبس الفسحة .

رجل جاءته ثورة ، لم يعمل عملاً واحداً من أجل تنظيمها ، وجاءته الثورة بحكم لم يكن يحلم أن يصبح أحد دعاماته ، وحين وجد فى الحكم خطورة ومسئولية العمل السياسى ركن نفسه بنفسه حتى جاءته الرئاسة من حيث لا يعلم ولا يدرى ، واصطدم بأناس كانوا أخيب المتآمرين عليه ، فقد بادروا واستقالوا وسلموا أسلحتهم قبل المعركة ، وحين جرب أن يراوغ الشعب وعقد معاهدة مع الروس لم يكن لها معنى وأخذ الشعب المعركة جداً ، وخيره بين الحرب أو السقوط ، غمى عينيه وحارب ، وبجيش عبد الناصر وفوزى انتصر ، محظوظاً انتصر ، مثلما محظوظاً حكم ، ومحظوظاً أصبح غلاف التايمز والنيوزويك والدير شبيجل والوجه الدائم فى أى تليفزيون غربى ، هو الذى أرسل صورة له - وهو ضابط - يطلب عملاً كممثل ، محظوظاً أجلسه كيسنجر كما يقول فوق حجره ، ورعته وكالات الأنباء الصهيونية وأرضعته ما لم يحلم به من لبن المجد والشهرة وجعلت له فى الخافقين مجد أباطرة إيران ، ويونيفورم كيتل وروميل ، وشوارب أعظم من شوارب هتلر ، وأنواع من الملابس جعلته من العشرة المختارين للأناقة والرشاقة ، رجل كان يمضى بين أيدى مدلكه الخاص أكثر بكثير مما يمضيه فى أى اجتماعات سياسية حتى إنه اصطحب ذلك المدلك إلى كامب ديفيد وكان وقته مع المدلك أضعاف أضعاف وقته مع الوفد المصرى أو حتى مع الوفود الأخرى ، رجل فى نفس الوقت الذى كان ينادى بنفسه زعيماً لثورة وتنظيم الضباط الأحرار ضد الملك كان أروع من مائة ملك وخديوى يحيا ، فى الوقت الذى يجهر بسيادة القانون يخرق القانون ابتداء من إنجاح ابنه إلى دكتوراه زوجته إلى توفيق وعثمان وعصمت وعائلة كبيرة فعلاً ، ولكنها عائلة غيلان تنطلق فى كل اتجاه تغش وتسرق وتقتل وتضرب ، وتنهب ، وكبيرها بنفس الدف واللكمة يضرب ، وبقسوة عصمت على رشاد يخنق أى معارض ، ومن أقصى الأقباط إلى أقصى المسلمين ومن أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ، ومن فتحى رضوان ذى السبعين إلى عمر التلمسانى المقترب من الثمانين إلى شباب المسلمين فى الثامنة عشرة يخنق ويسجن ويضرب ، وبأفحش الألفاظ ينهال علناً وأمام العالم ، سباً على الناس جميعاً من برجنيف إلى الخمينى ومن القذافى إلى الأمراء والملوك . رجل لم يناد أحداً بكلمة الصديق إلا معلمه كيسنجر ، ويسمى رجلاً وطنياً مسلماً فاضلاً كعمر التلمسانى ((بالكلب)) ، بينما يسمى المجرم بيجن بأخيه وصديقه الوفى ، رجل من المال العام يزهو بأن يبنى قريته ويزود بيوتها بالماء الساخن وفى نفس الوقت

يعيب على هيكل أنه يستخدم فى منزله ذلك الماء ، وأنه يفطر فى رمضان ، رجل أطارت ضربات الحظ المتتالية التى صادفته منذ أن قامت الثورة حكم الإنسان السوى فيه على الأمور وأطلقت العنان للسفه .

أجل يفعل هذا كله ، ويفعل هذا كله أمام الناس أجمعين ، بمعنى أن كل ما ذكرته آنفاً جرى أمام الدنيا والعالم وليس فى حجرات مغلقة ، ألا نفترض إذن أن يكون ما جرى فى الحجرات المغلقة هو أدهى وأمر ؟ وإذا كان هذا هو الجزء الذى ظهر لنا أو بالأصح أظهره هو لنا ، فيا لهول ذلك الجزء الخفى الذى - إلى الآن - لم يظهر ، وتصرفات هذا شأنها تمتد من التصرفات اليومية إلى تصرفات مسرحها العالم والدنيا عليها شاهدة ، تصرفات أعطت الضوء الأخضر لطبقة بأكملها من المجرمين واللصوص وقطاع الطرق أن يصيبها الصرع وتمضى تنهش وتلهف وتسجل ثروات فلكية فى أعوام ، بل فى شهور ، بحيث يمتلك ابن واحد لعصمت ، واحد من الخمسة عشرة ابناً والخمس زوجات ، 59 مليون جنيه أسهماً ، وملايين الجنيهات والدولارات سائلة ، وتليفونات وعربات وقصور ، كيف يتسنى لشقيق رئيس جمهورية فى عالم اليوم أن يمتلك مالاً وعقارات تساوى إلى الآن مائة وثلاثين مليوناً من الجنيهات فى زمن لم يتجاوز الخمس سنوات وبادئة من حضيض الحضيض ؟! وكل ما يفعله الشقيق الرئيس من عقاب أن ((يمنع)) أخاه وأبناءه من ((دخول)) الميناء ويثبت أن هذا المنع كان لخوفه على حياتهم وليس زجراً لهم أو إظهاراً لعين أو نظرة حمراء مانعة .

وهل نفصل سرقة مجوهرات أو قصور أو اغتيال أرض دير وضرب شريك بالرصاص ، وسكوت كبير العائلة ، هل يمكن فصل هذا عن الجرائم على النطاق القومى ؟

وهل الذى يبيح للفاسدين أموال الدولة والشعب يتعفف أن يبيع حقوق بلاده كلها مقابل جائزة لنوبل ، أو صورة على غلاف ، أو مزارع فى كاليفورنيا ؟

الخيانة مرتبة أعلى

إذا أخذنا خطاً أفقياً وجعلناه مقياسنا ، وأطلقنا منه خطوطاً كشعاعات الشمس بحيث تغطى المائة والثمانين درجة التى تشكل زاوية الخط الأفقى .

وإذا رسمنا منحنى لتصرفات السادات بدءاً من ميلاده حتى مصرعه وضمناه كل ما كان يقدم عليه من تصرفات تبدأ من غرفة نومه الخاصة إلى أكبر منابر العالم وأوسعها حيث شهودها بالملايين ، فإننا سنلمح قاسماً مشتركاً واحداً بين هذه التصرفات جميعها .

ذلك هو : الانعدام التام لمراجعة يقوم بها الضمير أو وقفة لتبين موضع القدم ، أو - فى النهاية - أى انتباه أو اهتمام بما قد يقوله الناس عن صاحب ذلك التصرف أو قائل ذلك القول أو الأخذ بذلك الموقف .

وإذا لم ينه الإنسان نفسه بنفسه .

أو لم ينهه ضميره .

أو زوجه .

أو صديقه .

أو جاره .

وإذا لم يهتم هو ، حتى لو كان الناهى أقرب المقربين .

فما هى القوة التى ستمنع ذلك المخطئ أن يرتكب ذلك الخطأ ؟

ومن يقف حائلاً بين صاحب ذلك الوجه المكشوف الذى لا يهمه أحد وبين الإقدام على فعل أى شئ أو قول أى شئ أو اتخاذ أى موقف ؟

إن الضمير ، والتعقل ، والآخرين هى الوسائل التى منحها الله سبحانه لعباده ليقيموا بها أنفسهم ويقيموا أفعالهم ويحكمون بها على أنفسهم وعلى الآخرين.

فإذا انعدمت تلك تماماً .

فماذا يمنع المخطئ أن يخطئ ؟

والمسئ أن يسئ ؟

والشريف حتى أن يسرق ؟

والمواطن أن يفرط أو يخون ؟

خوف الله سبحانه ، قد يقول قائل :

ولكن الخوف من الله لا يتأتى إلا لمالك لضمير أو لعقل أو لمشير أمين . فإذا انتفى هذا كله ، لم يعد بين ذلك الشخص وبين القيام بأحط الأعمال حائل .

ولهذا ، فالمانع الوحيد الذى كان يحول بين الرجل وبين العمل الخبيث هو عامل واحد ليس هناك غيره : الخوف . الخوف الجشع على النفس والذات والثروة والسلطات . الخوف أن يؤدى هذا العمل إلى الخطر على النفس أو الحياة . وسداً لهذه الثغرة اتخذ السادات لنفسه واحداً من أكفأ أجهزة الحراسة الخاصة ، دُرِّب تدريباً شاقاً ودقيقاً فى الولايات المتحدة ، بل كان فيه بعض الأمريكيين المكلفين بأدوار أخطر من أن يُعهَد بها لغيرهم .

ومحتمياً بهذا الخندق البشرى راح السادات ، من مكمنه ومأمنه يطلق النار والتصرفات والأخطاء فى كل اتجاه .

وفى مكمنه هذا ومأمنه يعبد الله إذا عبده عن خوف .

ويقتنع نفسه أنه ما دامت العلاقة بينه وبين الله عامرة .

فلا يهم أبداً كيف وإلى أى مدى تكون علاقته بالناس .

ونسى أن علاقة العبد بالله سبحانه ليست علاقة خاصة .

إنما هى علاقة تعمر أو تخرب بكم ونوع علاقة الإنسان ببنى الإنسان من حوله بحيث حين يظلمهم ، هم عبيد الله ، تنتفى علاقته السوية بالله ويحاسبه الله دنيا وآخرة حساب الظالم .

وقد حاسب الله السادات حساب الظالم .

وقبل يوم الساعة حلت ساعته ، وأفتح الجرائد كلها ، وأقرأ ما تزدحم به المحاكم ، وألسنة الناس ، وصفحات الكتاب من صور مروعة لحقبة السادات وأفعاله ، كتاب يكفى لإدخال صانعيه ولو كانوا بالملايين إلى سراديب جهنم ، فما بالك وهذا كله من تدبير وصنع نفس بشرية واحدة ركبها الشيطان .

كان حرياً بظروف كظروف العرب ومصر قبل 73 أن تخلق - لو تركت الظروف والمواقف وحدها - قائداً جديراً بالمرحلة جدارة المرحلة به .

ولكن المسائل لم تتم بالتلقاء وبقانون الانتخاب الطبيعى والبقاء للأصلح . كان من حظنا التعس أن تتجمع الوساوس على عبد الناصر بحيث تحتم عليه أن يختار أقل زملائه ورفاق 23 يوليو قدرة على قيادة الحقبة التالية ، خوفاً من أن يختار الرجل القوى المناسب فتسول له نفسه - للخليفة المختار - أن ينقلب على قائد الثورة.

ولهذا اختار نائباً له إنساناً ، لا يمكن أن يرضى به أحد رئيساً .

اختار المهرج ليترحم الناس على جديته هو .

الساذج ليترحم الناس على حذقه .

المحب للظهور ليترحم الناس على تواضعه وتقشفه .

أقل الناس إيماناً بالمساواة والاشتراكية ليترحم الناس على القائد الشعبى الاشتراكى.

والقاعدة الذهبية أن الحاكم الضعيف يصبح أكثر الطغاة رعونة وخوفاً من الرجال الأقوياء والشعب القوى وحتى الرأى الحصيف .

وجاء هذا الاختيار الذى مهَّدت له أطراف عربية وأوعزت به الاستخبارات الأمريكية عن طريق مستشاريها الذين كان يحتل بعضهم أمكنة قريبة جداً من صانع القرار ، عبد الناصر ، جاء هذا الاختيار برداً وسلاماً على الغرب بزعامة أمريكا.

ولعلمهم بمدى قلة شعبيته وهوان شأنه تولوا حقنه بفيتامينات التأييد والوعود وربما التلويح بأنه حتى لو دخل الحرب فلن يخسرها .

وكان عند ظنهم .

ففى أقل من أربع سنوات كان اتجاه مصر الثورى قد صُفى تماماً لمصلحة أمريكا ومن معاداة الاستعمار إلى التسليم الكامل بالتبعية له .

وعجلت الحرب بعجلة التحويل .

وما كادت تنتهى حتى كانت البقية الباقية من آثار الثورة قد التهمها الانفتاح وأتت عليها القروض ونهبها اللصوص .

وحتى كانت إسرائيل قد تحولت من ألد الأعداء إلى الشريكة فى المفاوضات والسلام المتهافت المستسلم .

والأشقاء والحلفاء العرب قد أصبحوا ألد الأعداء .

والقطاع العام ، ابن الثورة البكر ، أصبح ابن الحرام المنبوذ .

والطهارة الثورية وقد توارت خجلاً من زحف الدنس والرشوة والدعارة .

وأفقنا جميعاً لنجد مصر قد دحرجها السادات وعصابته إلى مستنقع ((مجارى)) لا مكان لرجل نظيف أو عمل نظيف أو تصرف سوى فيه .

وما كانت كامب ديفيد ، وما جرى منذ مبادرة التهامى والسادات ومفاوضات ديان ، تهامى فى الغرب ، وكيسنجر والسادات فى أسوان ، وغيرهم وغيرهم إلا الامتداد الطبيعى لسياسة اقتصادية ، حرب على الشعب ، وسياسة حرب على كل من يمت إلى الوطن ومبادئه ، وبنفس أساليب عصابة النهب والحكم وسمسرة التليفونات والأوتوبيسات واللحوم الفاسدة والمخدرات قنع القائمون عليها بفتات موائد بيجن وبن أليسار وفايسمان وشامير وبورج .

وعلى مائدة تضم السفاحين فى ناحية ومجرمو الحرب والمشاركون فى صنع هزيمة الثغرة من ناحية ، والطامعون فى فلسطين والعرب من ناحية ، والمسلمون بكل ما يستر العورات أمام المصريين والعرب من ناحية ، اجتمع اللص والطابور الخامس والمستعد لبيع أهله ليظفر بالكرسى .

اجتمعوا ـ هكذا قالوا ـ ليتفاوضوا .

وقبل أن يبحث إنسان عن كنه مفاوضات وجدية مفاوضات ، فإن نظرة واحدة لماهية المتفاوضين كافية ـ دون أى شئ آخر ـ لإدراك النتائج .

نتائج لا ترقى حتى لمستوى الخيانة .

فالخيانة دائماً بمقابل يحصل عليه الخائن من الطرف الآخر ، فإذا كان إطلاق سراح أيدى الطرف الآخر لينهب بلده ويدمر حلفاءه ومعسكره ، أى يضيف من عنده لمكاسب الجانب الآخر .. فإننا أمام نوع من الخيانة لم يحدث من بيتان أو سينجمان رى أو أى عميل يفاوض حتى أولئك الذين صنعوا منه عميلاً .

ولأن هذا قد حدث ، وتمت بالدخول فى سراديب كامب ديفيد أغرب وأعجب مفاوضات حدثت فى التاريخ .

فقد كان رد الشعب على ما حدث هو أيضاً أغرب وأعجب رد لشعب على مفاوض .

وحادث المنصة سيبقى دائماً من عجائب التاريخ السبع ، لأن ما سبقه وأدى إليه سيبقى دائماً مثلاً للتفريط فى حقوق أى شعب ، عجيبة هو الآخر فريدة بين ما يحفل به التاريخ من عجائب .

وهو حادث جرى حتى قبل أن تعرف أو تحلل كل التفاصيل أو يرفع الغطاء عن كل مستنقعات الخيانة .

فما بالك حين يحدث فى القريب العاجل هذا .

ويرد على كل مناصر لكامب ديفيد التى كانت وكل كامب ديفيد فى طريقها للحدوث ، وكل المرحلة الكامب ديفيدية المقبلة ، يرد عليها بإفحام لا يقل عما حدث فى 6 أكتوبر عام 1981 .

أيها المتشدقون المحاولون خداع التاريخ والناس .

لا أقول لكم العاقل من اتعظ .

فالإجهاز على المذنبين ، فى محاكمة لم تستغرق دقائق وشاملة بالنفاذ ، لم يعظكم .

وعليكم ـ كلما جاءت لكامب ديفيد سيرة ـ أن تبادروا بحفر خنادق عميقة الغور.

وآه لو علمتم أنها ، مهما غارت بكم وغورتم فى أعماقها فإن يد العدالة ستطبق عليكم .

ليس فقط لكامب ديفيد .

وإنما لأبشع جريمة ارتكبت فى حق شعبنا على مدى تاريخه .

جريمة تجريده من ثورته ، وحقوقه ، واشتراكيته ، وسلاحه ، وأشقائه ، وتاريخه ، وتركه عرياناً يرتجف بين الذئاب .

استعدوا .

خاتمة

بدأت سؤالى بموقف السادات وهل كان خيانة أم تفريطاً لحد أقصى درجات الخيانة .

وها نحن ذا نصل سوياً لأن ندرك ، أن ليس السادات وحده وإنما كل من ارتكز بوجوده على وجود السادات ، وزين بمعسول كلامه وصمت شيطانه الأخرس طريق الموافقة والانزلاق .

ويا لكارثة الهول حين تصبح الخيانة مرتبة أعلى مما كان وما جرى من وقائع عشر سنوات من حكم مصر ، ستكلف شعبنا مائة عام لإصلاح ما عن عمد وسبق إصرار وترصد خربته .

ذلك لأننا لن نصلح فقط أخطاء أو نحاكم جرائم ومجرمين ، وإنما لابد أن نغير ((عصراً)) بأكمله ، لعصر آخر ، فبالأمس ، حين كان الاستعمار لا يزال فى مراحله العسكرية البدائية الأولى ، كنا نعرف أننا انتقلنا من عصر كنا فيه مستقلين إلى عصر أصبحنا فيه محتلين ، كنا نعرف هذا برؤيتنا لجنود ومواقع ومعسكرات جيش الاحتلال .

أما ما حدث لنا خلال السنوات العشرة الماضية ، وانتقالنا إلى العصر الذى نحن فيه الآن ، فليس هناك دليل على الهاوية التى نحن فيها يمكننا أن نلمسه أو نراه رأى العين ، وما حدث ويحدث فى لبنان الآن ممكن أن تطمس معالمه ، وقد طمست أو بدأ طمسها بلجنة كاهان وخروج إسرائيل ((ديمقراطية)) تماماً من مذبحة لم يجرؤ هولاكو أو هتلر على القيام بمثلها ، ومشكلة لبنان الوطن لها ألف حل فى الظاهر ، وكذلك الكيان الفلسطينى المرتبط مع الأردن ، أو بالأصح ، المقيد مع الأردن فى قيد لا يعرف فيه أحد مَن المسجون ومَن السجان ، ومصر مقاطعة عربياً ، وقد تزول المقاطعة ، باختصار كل ((آثار العدوان)) الظاهرية ممكن أن تزال .

ويا للكارثة حين تزول ، ذلك أنها سوف تزول من أمام الأعين فقط ، أما فى الحقيقة فإن تمكن من أسميناهم الأعداء فى مستهل هذا البحث ، تمكنهم منا سيصل إلى النخاع ، وهناك ألف سادات جاهز ، وألف كامب ديفيد مطروحة ، وأكاد لولا الحياء أن أقول إننا فى واقع أمرنا فى حالة ((انفتاح)) كامل أمام الشريك الكامل والجار الكامل وكل كامل ، ومنفتحون وسوف ننفتح أكثر دون أن ندرى والأصابع تعبث بنا دون أن ندرى .

أو حسبتم أن الانهيار فى سوق الكويت من صنع الصدفة ؟

أو أن الحرب الإيرانية العراقية نفسها تحددت فى لحظة مزاجية إرادية من هذا الطرف أو ذاك ؟

أو أن نهايتها لا تبدو فى الأفق لأنها مستحيلة النهاية ؟

أم أن هذه الحرب نفسها لها أوثق العلاقات بانهيار سوق المال فى الكويت ، وأوثق العلاقات بانهيار أسعار البترول ، وغرق الأوابك فى الأوبك ؟

ليس ما ألقيناه سوى خيط ضوء واحد على إصبع رهيبة واحدة .

اندكت فى صدرونا وخرجت من ظهرنا ولكن جسدنا كله مخترق .

والخناجر تعمل فيه من كل اتجاه .

ولا نستطيع أن نصرخ ونقول : النجدة .

فلمن نقول ؟

لن ينجدنا أحد ـ فى هذا العالم المخيف ـ إلا أنفسنا كعرب .

فنحن غريق يستغيث بغريق .

فهل يستطيع غريق أن ينجد غريقاً ؟

نعم يستطيع .

واستطاعته تبدأ بأن يدرك ـ حتى لو كان واقفاً على ما يتصور أنه الشاطئ ـ أنه هو الآخر غريق يغرق .

أقول ربما لو أدركنا ، أول ما ندرك ، أننا كلنا نغرق ، وأن لا أحد حتى صاحب الملايين المودعة فى مصارف سويسرا أو أمريكا ، أو العقار فى الريفييرا ، لا أحد حتى هؤلاء ((الأغنياء)) الذين يتصورون أنهم أغنياء ، بينما ثرواتهم كلها فى قبضة من باستطاعته أن يحرمهم منها بقرار ، مجرد قرار .

أم تقولون : مستحيل فقوانين تلك البلاد لا تسمح . نفس البلاد التى جمدت بقوانينها ، أموال إيران ، وقبلها مصر .

لا قوانين أيها السادة الغرقى .

هو قانون واحد فقط ، قانون البحر العاصف الذى لا يرحم .

وهكذا لو أدركنا أننا كلنا ـ مرة أخرى كلنا ـ غرقى ونغرق أو حتماً سنغرق ، إذا بقينا على هذا الحال .

ربما .

مرة أخرى أقول ربما .

لو أدركنا هذا .

أمكننا ، لو تشابكت أيدينا .

مجرد تتشابك أيدينا .

أن نصنع بأجسادنا المتحدة كتلة تطفو ، وحتماً تطفو إذا تشابكت ، فسيعمل حينذاك قانون العلم وليس قانون العاصفة والبحر الأعوج .

العلم الذى يقول : كلما كبر الحجم زادت القدرة على الطفو .

فلنكبر حجماً لنعيش .

فلنتشابك لنكبر حجماً .

فلنكف أن نستغيث ، فالمغيث هو نحن أيضاً .

يا مغيث ، أغثنا .

الفهرس

نقله إلكترونياً :

ahmed15091981@yahoo.com

مع تحيات مدونة العلم هو القوة

http://nermeen.nireblog.com